الرواية العالمية (٩)

شحاذون .. ومعتزون

تأليف : ألبير قصيري

ترجمة وتقديم : محمود قاسم

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية « شحاذون ومعتزون »

Mendiants et Orgueilleux, Albert Cossery, Julliard, 1979, France.

مقدمة

هذا الروائي وهذه الرواية

لم اتحمس لرواية واعجب بكاتب خلال السنوات الأخيرة مثلما تحمست لهذه الرواية التى اكتشفتها مصادفة فى احدى المكتبات .. فهى رواية لا يمكن الا أن تبهرك بعالمها .. منذ أول سطر حتى آخر كلمة .. بصدقها .. واصالتها .. الغريب أننى ما ان انتهيت من قراءة الفصل الأول حتى قررت أن أترجمها .. رواية مصرية مائة فى المائة . ومن المثير للدهشة أن هذا الكاتب غير معروف على خريطة الحركة الأدبية المصرية والعربية والسبب بسيط هو أن أحدا لم يترجم له أى من رواياته السبع ، فهى رواية مصرية وليست مصرية .. فكاتبها مصرى .. ويكتب كل رواياته عن مصر .. عن قاع المجتمع .. طبقات معينة من هذا المجتمع .. ولا نغالى ان قلنا انه سبق غيره من الأدباء المعروفين فى هذا المضمار .. والبرهان موجود فى هذه الرواية التى بين ايدينا . حيث يمكنك الحكم على هذه المقولة بعد الانتهاء من قراءة هذه الرواية .. ثم بقية روايات البير قصيرى .

وهذا الكاتب المصرى المعروف بدرجة أقل فى الغرب يشبهونه بهنرى ميللر أشهر من كتب أدبا مكشوفا فى القـــرن العشرين ·· فعالم البير قصيرى ينتمى وحده الى ما يكتبه ، وليس اكثر ··

والبير قصيرى هو أحد المصريين ، وهو أكثرهم مصرية من بين الذين يكتبون أدبهم مباشرة بلغة غير عربية ·· فظلم بذلك نفسه ورواياته ·· فالقارىء فى بلاده حرم من هذه الروايات ·· وظـل قاصرا على الأسماء القليلة المعروفة التى شكلت عقليته ولم تسمح بدخول أسماء جديدة ··

وقصيرى ينتمى الى جيل جورج شحادة واندريه شديد وجورج حنين · وكلهم كتبوا عن مصر ·· بل وعن اعماق هذه البلاد بصورة تثير الدهشة ·· مزجوا التاريخ بالمعاصرة بالواقع ··

ولد البيرى قصيرى فى مدينة القاهرة فى ٣ نوفمبر عام ١٩١٣ من أبوين مصريين ·· التحق بالمدارس الفرنسية القاهرية ، فكان احد ابناء الأسر التى لا تتحدث فيما بينها وفى حياتها الخاصة الا باللغة الفرنسية ولم يستطيعوا التعبير عن أدبهم باللغة العربية ·· وفى عام ١٩٣٠ سافر لأول مرة الى باريس لاستكمال دراسته · وفى باريس كتب روايته الاولى « بشر منسيون » · التى ترجمت عام ١٩٤٦ الى اللغة العربية والانجليزية فى طبقات بسيطة محدودة ولا احد يعرف مصيرها حتى الآن · وقد دفعه نجاح هذه الرواية الى ان يسير فى درب الكاتب الأمريكى هنرى ميللر · وقد سعى البير الى الولايات المتحدة من خلال عمله فوق احدى الســـفن التجارية المصرية التى جابت به انحاء العالم · أحب الكثير من الموانىء عـــلى رأسها الاسكندرية وبورســـعيد ونيويورك والجزائر · واقام فى بعض هذه المدن فترة من الوقت · لكنه أبدا ظل متعلقا ببلاده · ورغم ذلك فقد قـــرر فى سبتمبر ١٩٤٥ ـ وبعـــد أن انتهت الحرب ـ

الاقامة فى باريس · وهناك سعى الى نشر روايته « بشر منسيون » مرة أخرى · وقد ساعده نجاحها على الاقامة الدائمة فى باريس · وتوالت رواياته القليلة وهى : « منزل الموت الاكيد » التى طبعت بالفرنسية فى احدى مطابع القاهرة · و « شـــحاذون معتزون » و « كسالى فى الوادى الخصيب » و « العنف والفشل » ثم « مؤامرة على بنك » · وهى جميعا عن مصر ··

وقد أخرجت السينما الفرنسية رواية «شحاذون ومتكابرون» فى فيلم سينمائى لم يلق نفس نجاح الرواية التى كتبها عام ١٩٥٧ وتدور أحداثها فى عام ١٩٣٩ ، أى قبل اندلاع الحـــرب العالميـــة الثانية بقليل · ولن نتناول الرواية فى هذه المقـــدمة لكننـــا باختصار امام أربعة رجال يمثلون الطبقات الاجتماعية المصرية فى تلك الأونة ·· ضابط الشرطة ابن الارستقراطيين ، وجوهر استاذ الجامعة الذى فضل ان يتخلى عن وظيفته ليعيش صعلوكا · والمناضل الموظف الكروى ·· ويحيى الشاعر الصعلوك ·· والذى يحبه ابناء الشعب لانه يعبر عنهم ··

البير قصيرى اكتشاف جديد قديم نقدمه للقارىء العربى ، ونامل أن تتاح الفرصة لترجمة بقية رواياته ·

محمود قاسم

شحاذون ومعتزون

- ١ -

استيقظ جوهر ، حلم أنه يغرق ، استند على مرفقيه وتطلع حوله ، امتلأت عيناه بالريبة ، والرغبة فى النوم مرة أخرى · لم يعد يحلم ، ولكن الواقع كان قريبا من حلمه حتى تردد لحظة · وأدرك أن هناك خطرا يهدده · تمتم : يا الهى ، لقد حل الفيضان وسوف يغرق النهر كل شيء · لكنه لم يبد أى استعداد للهروب من الكارثة · بل على العكس فقد ظل غارقا فى نومه كأن شيئا لم يحدث ·

استغرق كثيرا من الوقت كى يتماسك ، ود لو يدعك عينيه لكنه امتنع · فيداه مبللتان ومزوجتان · ينام فوق الأرض بملابس الخروج · فوق حاشية رقيقة من أوراق الصحف القديمة · لقد علت المياه وغطت الأرض كلها حتى دخلت غرفته · تنساب نحوه فى هدوء، كأنها كابوس · أحس جوهر كأنه يقف فوق جزيرة تحوطها الأمواج العاتية ، فلا يجرؤ على الحركة · أغرقه انسياب هذه المياه

في ذهول شديد · استبد به خوف أن يستيقظ من نومه · لقد ادرك الآن ان فكرته عن الفيضان الذى يندفع فى مجرى النهر ليست سوى خيالات · حاول ان يعرف من اين تأتى هذه المياه · وهو يدفعها بقدميه أدرك انها تتسرب من أسفل باب الغرفة المجاورة ·

ارتعد جوهر وهو يشعر بخوف شديد من البرد ، حاول ان ينهض · لكن النوم يثقل عليه · يشل أعضاءه ، يربطه باربطة خفية · مسح يديه اللتين لم تبلا بعد فى سترته · الآن يمكنه ان يدعك عينيه · شعر بالخوار والتعب · تطلع الى باب الغرفة المجاورة وهو يفكر : « لعلهم يمسحون البلاط · ومع هذا فشلوا فى الحراقى » بدا له ان الجيران يتصرفون بطريقة تثير الغيظ · خاصة ان هذا الأمر لم يحدث من قبل · فى هذا المنزل المتداعى الذى يقع فى احد الأحياء الشعبية · يسكنه قوم فقراء تربط الالفة فيما بينهم · لا يمسحون البلاط ابدا · لعلهم سكان جدد ماكرون يحاولون اثارة مشاعر أهل الحى ··

ظل جوهر جامد المشاعر · وكان ذهولا استبد به · عليه ان يفعل شيئا كى يوقف هذا الفيضان · لكن ماذا يفعل ؟ من الأفضل ان ينتظر حدوث معجزة · فمثل هذه المواقف العابثة تقتضى حلا عن طريق قوى خارقة · أحس جوهر بخوار فى قواه · انتظر بضع دقائق لكن شيئا لم يحدث ، ولا توجد قوة يمكنها ان تزحزحه من مكانه · انتصب فجأة · ظل واقفا ساكنا · وقد أصابه هذيان · كغريق تم انقاذه ، ثم وبتثاقل بالغ ، تقدم ناحية الأرض واتجه الى المقعد الوحيد الذى لا يوجد سواه فى الغرفة · اللهم الا صندوقا مصنوعا من خشب المامبو · عليه موقد ، واناء قهوة وزجاجة مياه صالحة للشرب · فجوهر يعيش فى أشد ظروف العيش شظفا · لقد استبعد من ذاكرته منذ زمن طويل أبسط فكرة عن الرفاهية ·

يكره ان تحوطه الاشياء · فالاشياء تخفى اسباب المأساة وتجسدها وتضاعف منها ·

المأساة التى لا تشوبها شائبة وتتولد حتما · يخشى ان تعود المأساة للظهور مرة أخرى لقد أصبحت الاشياء رمزا · وعليه ان يبعد عن عينيه كل المؤثرات · لذا أخلى جوهر غرفته من كل شىء وبدت له بالغة الجمال · وفيها يشعر بالتفاؤل والحرية · فالاثاث يثير حفيظته · لأنه لا يمكن أن يثير غريزته فى التطلع نحو الرفاهية · لكن الناس وحدهم فى أشكال جنونهم المختلفة يمكنهم التسرية عنه ·

ظل ساكنا برهة ، وهو يتطلع الى سريره الأرضى الذى لم يعد صالحا للاستعمال · لقد غرقت الجرائد القديمة التى يستخدمها كحاشية · وبدأت فى الالتصاق بالارض · احس بالسعادة وهو يراها تتلف بسبب بساطتها الأولية · لم يعد هناك شىء · فقد مرت العاصفة بلا خسائر جسيمة · أحس جوهر أنه لا يزال صامدا · ولذا لن يسعى لمعالجة الموقف من جديد تذكر جيرانه المزعجين وتساءل عن أسباب هذه النظافة المريبة · ماذا يودون ؟ فالمنزل لا يحتمل أبدا مثل هذه المظاهر ، فالمنزل متهالك وقد ينهار بين لحظة وأخرى · وآنذاك سوف يتضرعون مبتهلين الى الله ان ينقذهم ·

حاول جوهر ان يفهم نوايا هؤلاء الجيران المزعجين ، عندما انفجرت صرخة ضخمة متدفقة من صدور عديدة ، صرخة قوية أشبه بليل سرمدى ، قادمة من الغرفة المجاورة · اهتزت لها جدران البيت القديم وشقت صدره ، أعقبها صمت حاد · ثم صراخات مدوية · لم يفهم جوهر على التو ماذا يعنى هذا الهذيان الشديد · فهناك فى الغرفة المجاورة يوجد ميت · وما تلك المياه البيضاء المليئة برغاوى الصابون الا الغسول الذى غسلت به الجثة ·

في أول الأمر ، أحس بذهول تبعه شعور بالاشمئزاز • فجلس فوق المقعد وقد تقطعت انفاسه • نظر بنصف عين الى يديه المرتعدتين والمبللتين ، وملابسه التي لوثت بالموت • انتفض فجأة لينفض عنه اسباب الموت الماكرة • واسرع نحو القلة • لكن القلة خاوية ، القى جوهر نظرة مرتعدة ، وهو يفتش عن حنفية غير موجودة • كيف يغسل يديه ؟ أبقاهما متباعدتين وهو يتساءل عن المرض الذي اصاب جاره • لعله أصيب بمرض معد وهو يؤكد لنفسه متألما والجراثيم ؟ بدا أن الخوف من الجراثيم شيء مضحك • اذا كان علينا أن نموت من الجراثيم لمتنا جميعا منذ وقت طويل . فالجراثيم تفقد فاعليتها في مثل هذا العالم • جلس فوق المقعد وظل يفكر طويلا في هذه المغامرة القريبة • اجتاز كوارثه العديدة بفضل تفاؤله واحساسه بأنه تخلص منها الى الابد • من جديد تأمل الأرض التي طالتها المياه، وورق الصحف المتناثرة والغرفة الخاوية ، فانفجرت ابتسامة غريبة من وجهه الهادئ النحيل •

في الغرفة المجاورة ارتفع النحيب الى أعلى درجة ، اتسعت صرخات النساء الى حد لم يعد يحتمله • عاكسة جوا من الدراما الدامية • ولا يمكن لأي قوى بشرية ان توقفه • بدا جوهر مفتونا بهذه الصرخات المرعبة • وشعر بالرغبة ان يفاجئهن بالصراخ مثلما يفعلن • ولكن هذه الصرخات تخرج من حناجر مأجورة • وتخترق أذنيه كأنها نداءات قادمة من عالم غريب ، لم يعرف فيها اي سمة من سمات الآدميين • هذا العالم المصنوع من الآلام المصطنعة الصارخة التي تملأ رأسه بضوضاء مسموعة تبعث على الدوار •

لقد استيقظ قبل موعده • ويريد ان ينام ثانية • لكن كيف ينام وخلف جداره هؤلاء الناديات الملعونات ؟ نساء لا يعرفن الرحمة• ارتعد جوهر • وقد انتابته رعشة باردة • انتظر طويلا ، ثم هب من مقعده وقرر الخروج •

امسك طربوشه الذي كان يضعه في ركن من الغرفة لم يصل اليها البلل • دسه في راسه : ثم أمسك عصاه وخرج الى السلم • كان باب جيرانه مفتوحا على مصراعيه • تردد جوهر طويلا وقد ارتسم الخوف على وجهه • فلأنه رجل اعتاد الحذر فهو يعرف ان النساء ستبكى عندما يشاهدن رجلا ، لذا هرول الى السلم دون تفكير وهو يلقي نظرة خفية على العديد من النساء البدينات اللائي اتشحن بملابس الحداد • وهن يجلسن داخل دائرة • يضربن صدورهن بايديهن ويطلقن الصرخات الحادة • أحس جوهر انه يكاد أن يغمى عليه • وان السلم سوف ينهار أسفل قدميه ولم يعرف كيف وجد نفسه في الشارع •

الوقت ظهرا • شارع الأزهر الواسع يعج بحشد متزاحم يشغله شاغل • عاد جوهر الى لياقته • فهنا عالمه المألوف بين الجموع الغفيرة التي ترزخ فوق أرض الشارع والرصيف رغم ان الطريق ملئ بالسيارات • والعربات الحنطور والكارو • والترام الذي يسير بسرعة • سطعت شمس الشتاء الواهية فوق الحشود • تطير الحداءات في أعلى السماء ثم تغوص — من وقت لآخر — وسط الجوع كي تعاود الطيران وقد امتلأت مناقيرها بقطع من اللحم • فلا يعيرها أحد انتباها • تقف النسوة امام محلات الاقمشة • يثرثرن لساعات اثناء شراء بعض المناديل المطبوعة • يتسلى بعض الأطفال وهم يشاكسون قادة السيارات حين يقفون امام عرباتهم • فيطلق السائقون سبابهم ولعناتهم عليهم وعلى امهاتهم الغائبات • وقد ينتهي الأمر بدهم أحدهم • من المقاهي المتناثرة في الشارع تبث أجهزة المذياع نفس الصوت الباكي لمطرب معروف • تصاحبه موسيقى حزينة • وكلمات تعبر عن آلامه وأحزانه حول قصة حب ضائع • تذكر جوهر جاره الميت • ونواح النسوة فاسرع الخطى •

لكن لا جدوى من الفرار من هذا الصوت الحزين الذى يملأ الشارع باكمله .

توقف جوهر وقد تكتم احساسا بالفرح وسط هـذا المزيج المتنافر من الاصوات فى الشارع . فامام حانوت خاو راى عجوزا، يجلس متأنقا فوق مقعده . وقد أخذ يتطلع الى المارة بنظرة متعالية. يبدو غريب النظرات . فكر « هذا رجل ارتاح اليه » فهذا الحانوت الخاوى وهذا الرجل الذى لا يبيع شيئا يمثلا بالنسبة له امرا منشودا لا يقدر بمال . فالحانوت ليس سوى ديكور ، وهو يفيده فى استقبال اصدقائه الذين يدعوهم لاحتساء القهوة . فهو رجل يتمتع بكياسة وكرم كبيرين . حياه جوهر كانه يعرفه منـذ أمد طويل . رد الرجل مبتسما وقد أدرك أنه معجب به . قال الرجل :

ـ شرفنى وتناول فنجان قهوة .

قال جوهر : شكرا ، فى مرة قادمة .

تبادلا النظرات لحظة بمودة بادية يحوطهـا الدفء . ثم استكمل جوهر طريقه وسط الجموع . كان بالغ السعادة . نفس الشىء يحدث له دائما : هذه الدهشة ازاء البساطة الغامضة للحياة. فكل شىء مثير للسخرية . وليس عليه سوى ان ينظر حوله كى يقتنع . فالأمور التى حدثت له لم تكن مأسـاوية بالمـرة . بدت المأساة ذات ثراء غامض . لم يسمع احد عنها أو يتوقعها . تتحكم اللامبالاة فى مصير هؤلاء الناس . اكتست كل الاشـياء الدنيئة بعلامات البراءة والنقاء . أحس جوهر بمشاعر التعاطف الانسانى فى كل خطوة يخطوها فى هذا الجمع الغفير .

عبرت عربة ترام صفراء الشارع محدثة ضـجة شديدة . يحتفظ بتذكرته دوما لكى يشق لنفسه ممرا وسط الجمهور الذى

يسد منافذ الطريق . وقريبا من مطعم فول مدمس ، أثارت رائحـة الطعام الرغبة فيه . توقف . اتكا على عصاه . وانتظر قليلا ، لا . ليس الجوع هو السبب فليس للجوع أدنى تاثير عليه . يمكنه ان يعيش أياما على كسرة خبز . يعنى هذا الاضطراب شيئا آخر . سار بضع خطوات وأدرك طبيعة قلقه . الحشيش . لقـد نسى الحشيش ، لخبطت وفاة جاره عاداته اليومية . فجوهر لا يستيقظ الا مع حلول الليل ، ولم يحن الوقت بعد لتعاطى المخدر . ومنقـذه الوحيد هو يحيى الذى لا يمكن أن يلقاه الا فى المساء . ومن الصعب أن يقابله الآن . فليس ليحيى مسكن محدد . لانه يعيش بلا مأوى .

كيف يمكنه أن يتماسك حتى يحين الليل ؟ تبعث هـذه الرؤية الجنون داخله ، سوف يعانى . ويعرف ذلك جيدا . وقـد استعد تماما لهذه المعاناة . فوضع فى جيبه كيسا ملفوفا . سحب منه قطعة من النعناع . وبدأ فى استحلابها ببطء ومهارة . ليس لها مذاق الحشيش . ولكن هذا الطعم لا يمكن أن يلهيه .

ابتسم وهو يرى عن بعد الشحاذ الذى لا يفتقده متقوقعا فى ركنه المألوف . نفس النداءات التى يرددها دائما . فى كل مـرة يمر أمامه . اذا لم تكن مع جوهر نقودا ، يدور بينهما حديثا له أهمية خاصة ، فجوهر يعرفه منذ أمد طويل ويشعر بالسعادة حين يحادثه . انه شحاذ من نوع خاص ، ولا يردد اى شكوى ولا يعانى من اى عاهة . بل على العكس ، فهو يتمتع بصحة طيبة . جلبابه سليم ونظيف تقريبا . تختلف نظرته عن نظرات الشحاذ المحترف . يعجب به جوهر كثيرا . لأنه لم يحافظ على تقاليد الشـحاذين . ولا يعير أحد هذا الشحاذ الأنيق أى اهتمام فوسـط هـذا العالم العبثى . يبدو ما يفعله الشحاذ عملا مثل بقية الأعمال ، العمـل الوحيد المقبول منطقيا ، من ناحية اخرى فهو يقبع فى نفس المكان

دائما ، كأنه موظف يجلس وراء مكتبه ، يلقى المارة ببعض القروش فى بعض الاحيان ينبه المحسن انه قد منحه قطعة معدنية زائفة ، وقد يهدده ان يستدعى الشرطة ، وتنتهى الأمور دائما لصالحه ،

توقف جوهر وحياه ، رد الشحاذ : وعليكم السلام ، رأيتك تأتى عن بعد ، فتأهبت للقائك ،

قال جوهر : آسف ، فليست معى نقودا ، فى المرة القادمة ،

ـ من أخبرك أننى أريد نقودا ؟

ـ ولم لا ؟ اعتقدت انك تحتقرنى ،

قال الشحاذ محتجا : أبعد عنك هذه الفكرة ، فرؤيتك وحدها تسعدنى ، لأننى أحب الحديث اليك ، وحضورك يساوى كنوز الدنيا ،

قال جوهر : انت تبالغ ، هل تسير الأمور على ما يرام ؟

ـ ربنا كبير ! من السعادة ان تكون موجودا ، الم تسمع حكاية الانتخابات ؟

ـ لا ، انا لا اقرا الصحف ،

ـ انها ليست فى الصحف ، بل حكاها لى شخص ،

ـ حسنا ، اسمعنى اياها ،

ـ لقد حدثت منذ ايام فى احدى القرى الصغيرة بالدلتا ، أثناء انتخابات العمودية ، عندما فتح موظفو الحكومة الصناديق ، لاحظوا ان اغلب البطاقات تحمل اسم برغوث ، ولم يكن الموظفون يعرفون هذا الاسم ، فهو ليس فى قائمة أى حزب من الأحزاب ، اصابهم الجنون ، ورجعوا الى المصادر ليكتشفوا ان برغوث هذا

هو اسم حمار يلقى احتراما كبيرا لرجاحة عقله فى القرية ، وقد صوت أغلب السكان من أجله ، ما رأيك فى هذه الحكاية ؟

شعر جوهر بارتياح وهو يفكر : يالهم من جهلاء ، لقد فعلوا افضل شىء منذ أن عرف الانسان الانتخابات ، فتعرف هؤلاء الفلاحين الضائعين فى أعماق قريتهم برهان ان الحالة اصبحت محالة ، أحس جوهر بالاعجاب من هذه الحكاية وهو يتأمل الشحاذ برهة ، حطت حدأة على الرصيف قريبا منهما ، نقبت بمنقار باحثة عن شىء تخطفه وسط الزبالة ، فلم تجد شيئا تأكله فعاودت الطيران ،

صاح جوهر : عجبا ، وكيف انتهت الحكاية ،

ـ بالتأكيد لم تتم الانتخابات ، فهم يريدون حمارا باربعة أقدام بينما المرشح حمار بقدمين ،

ـ انت تستحق هدية لهذه القصة الرائعة التى أسعدتنى ، ماذا أستطيع بالنسبة لك ؟

قال الشحاذ : تكفينى صداقتك ، كنت أعرف مسبقا انها ستعجبك ،

رد جوهر : معرفتك تشرفنى دوما ،، الى اللقاء ،

استدار جوهر وعرج داخل حارة هادئة ، متجها الى مقهى المرايا ، يعرف انه لن يقابل أحدا فى هذا الساعة من النهار ، ولكن يجب تحقيق المعجزات ،

تقع مقهى المرايا بين تقاطع حارتين ، تشغل الجزء الأكبر فى مبنى من الطوب اللبن ، ممنوع على العربات الكبيرة المرور منه ، ولكن مسموح لعربات الباعة الجائلين ، تعلوه مظلة ضخمة من

الكتان أعلى الشرفة الواسعة فتبدو وكأنها سوق مغطى . علقت مرايا عديدة أحاطتها اطارات ذهبية في كل مكان . خاصة في الواجهة . اشتهر مقهى المرايا بشايه الأخضر وارتفاع مستوى زبائنه من أصحاب السيارات ، ورجال الفكر والسواح الأجانب الذين يعشقون الذوق المحلى . في هذه الساعة لم يكن المقهى مزدحما . اجتاز جوهر الشرفة وتسلل بين الموائد باحثا عن شخص يعرفه ، يدخن بعض الأشخاص الذين تبدو عليهم الأهمية نرجيلة وهم ساكنين في أماكنهم ، يلعب الآخرون الطاولة ، أو يحتسون الشاي . هناك بعض بقايا السجائر المتناثرة تنتظر جامعي الأعقاب الذين يقومون ويوزعون العمل فيما بينهم دون أن يخشوا أي منافسة .

– السلام عليكم يا سيدى !

استدار جوهر . قام الكردى بنصف قامة من فوق مقعده وهو يمد يده . سأله جوهر :

– كيف حالك ؟ ألم تذهب اليوم الى الوزارة ؟

– ذهبت . ولكنني تركتها لتوى ، لا أستطيع ان اعمل يا سيدى . فأنا رجل بائس .

– ماذا بك يا ولدى ؟

قال الكردى بنبرة غامضة : جئت من هناك . اشد مرضا من أى وقت آخر . تركتها نائمة – لاحظ أن جوهرا لايزال واقفا .

اجلس يا سيدى .

– جلس جوهر . نادى الكردى على النادل :

– ماذا تشرب ؟

رد جوهر : شايا .

قال الكردى : وأنا أيضا .

اطلق النادل الطلب بصوت متناغم وعال ، تطلع جوهر نحو الكردى الذى يبدو الاسى والحزن البالغ على وجهه . يحاول ان يجسد هذا الاحساس . شاب مهندم انيق . يرتدى طربوشا جديدا عيناه مشدودتان بخفة . وفمه شهوانى ملىء بالمرارة . يعمل موظفا بسيطا فى احدى الوزارات وهو عمل يتناقض مع رومانسيته ويمكن ملاحظة حبه للحق بسهولة . قال :

– لا أستطيع أن اتركها على هذا الحال . يجب أن افعل شيئا . انصحنى والا انتحرت لم يرد جوهر على الفور . امتص النعناع الذى أنساه الحاج المخدر تماما .

– لماذا تنتحر ؟

– انت لا تفهم . يجب ان اخرجها من هذا الماخور . لاأستطيع ان اتركها تمارس الدعارة هكذا . مريضة هكذا خاصة ان الست امينة – الساقطة – لا تسمح لها حتى بالراحة عندما افكر فى كل النقود التى جلبتها لها ، يا للعار ! قلت لك سوف أنتحر .

لم يعر جوهر كلامه اهمية . فالكردى يبالغ دائما فيما يتعلق بمتاعبه . يبدو الآن كأنه يحمل هموم الدنيا . تتناوبه هذه الحالة بين الحين والآخر كى يشعر بكرامته . فالكردى يتخيل ان الكرامة هى ضريبة الألم واليأس . ويشعر ان كثرة قراءاته الغربية افسدت فكره .

تنصب متاعب الكردى الحالية من خلال احدى العاهرات الشابات التى تعانى من مرض السل الرئوى في احد المواخير القريبة . ماخور فقير يؤمه صغار الموظفين واشقياء المدينة فى البداية التقى بها الشاب مرتين أو ثلاث دون أن يعير الأمر انتباها . الا عندما

علم بمرضها · أحس ان المجتمع قاس عليها فاحبها بجنون · واصر أن يخرجها من هذا الماخور وان ينقذها من موت محقق · لكنه لا يمتلك النقود الكافية لمواجهة هذا المرض الشرس · فظل يتخيل الحلول المثلى لحبه البائس · وفى هذه اللحظة قرر الانتحار · لكنه ادرك أن الانتحار ليس قراره النهائى · سال :

ـ ماذا أفعل ؟

سكت جوهر · بدا كأنه يتسلى · تشع عيناه بفرحة تكمن فى أعماق هذا الوجه الجامد · قال له بعد قليل :

ـ ساروى لك حكاية غريبة ·

سال الكردى : ما هى ؟

روى له جوهر حكاية الحمار برغوث الذى انتخب كعمدة لما اشتهر به من حكمة ودل هذا على حكمة فلاحى الدلتا · بدأ الكردى فى الابتسام · لكنه أدرك أن عليه الا يكون سعيدا كى يثبت لجوهر أن هناك أشياء جادة فى حياته · بدا محتدا وهو يقول :

ـ حرام · هذه أشياء همجية ·

ـ أتعتقد انهم همج ؟

ـ أجل · وتستغل الحكومة جهلهم ·

ـ لكنهم اعطوا درسا بليغا لحكومتك ·

قال الكردى غاضبا : أولا يا سيدى · ليست حكومتى · ثم ان لى أساليبى التى أناضل بها ضد هذه الضغوط · وسوف تكتشف يوما أن هناك أشياء جادة فى الحياة ·

ـ أين ترى الأشياء الجادة يا بنى ؟

تطلع الكردى حوله بشكل غريزى ، وهو يفتش عن مظاهر العظمة · ولكنه رأى جامع أعقاب صغير ينحنى قريبا من المائدة كأنه يستمع لحديثهما · يلتقط الأعقاب بمهارة وتلقائية · أثار هذا المشهد الكردى فقام وأزاح المقعد كى يمكن له أن يتفحص الأرض · ورغم هذا لم يبتعد الطفل · بدا كان حبلا ربطه بهما · قال وهو ينظر الى الطفل ساخرا ·

ـ الا تود أن تتناول معنا شايا ، يا سعادة البك ؟

ـ رد الطفل : شكرا · فقد شربت فى قهوة البسفور ·

والبسفور مقهى فخم يؤمه علياء اليوم · ولم يطأه الكردى أبدا · قال غاضبا :

ـ هيا يا ابن الكلبة ·و الا خنقتك ·

غادر الطفل المكان مشمئزا · عندما ابتعد انفجر الكردى ضاحكا :

ـ هل سمعت يا سيدى · يا له من طفل خفيف الظل ·

ابتسم جوهر وهو ينظر الى الشاب بنظرة تملاها السخرية · انه معجب بعبثه الذى لا حدود له · فهو شاب ثورى يؤمن بأفكار حول مستقبل الجماهير وحرية الشعوب · ومع هذا فهو بالغ العبث لا يهرب من هذا العالم الساخر ، له أسلوبه ضد القهر · ويؤله أنه مقهور هو والشعب · ما أن يترك لسجيته حتى يمارس الأمور السطحية ·

يبدو الآن وكأنه أفرغ مرارته فى جامع الأعقاب الصغير الذى أنساه كل همومه · سعيد لأنه يجلس مع جوهر · فمعه تصبح الأشياء سهلة · وتخف صعوبات الحياة · وتكتسى الكوارث بلباس غريب · ويحس الكردى بطفولته تعود اليه ·

ـ وماذا عن السفر يا سيدى ؟

ـ أفكر فيه يا ولدى .

قال الكردى بحرارة : عليك أن ترحل . فسيكون هذا رائعا .

عندما يحدثه عن السفر يغلق جوهر عينيه . كان حنينا يجىء من بعيد ويستولى على انتباهه . يحلم بالسفر الى سوريا . حلم يداعبه منذ زمن طويل . انه الوحيد الذى يمكنه القيام به . لانه يربطه بمنابع نشوته . فالمخدرات غير ممنوعة فى سوريا . والحشيش ينبت بحرية فى الحقول . ويمكن للانسان أن يزرعه بنفسه . عرف جوهر هذه التفاصيل يوما . ومنذ ذلك الحين لم يكف عن الحلم بالسفر . يبدو هذا البلد المجاور اشبه بالفردوس . من الظلم أن يظل يعيش هنا . فعلى مسافة ساعات تكون المخدرات مباحة . فكر جوهر فى كل هذا الظلم . لا يمكن أن يغفر للقدر أنه ولد خلف هذه الحدود . يشعر أنه لن يسافر أبدا . ويحس احيانا أنه يعيش من أجل هذه الفكرة . وسوريا بالنسبة له ليست سوى الحشائش الخضراء التى يستخرجون منها الحشيش . فى ذلك الزمن الصعب الذى استقال فيه من وظيفته . لم يكف هذا المشهد عن مداعبته . قال الكردى :

ـ أراك تزرع حقولا كبيرة بالحشيش .

قال جوهر : يجب أن أذهب . لكن ليس هذا بالأمر السهل .

ـ انها مسالة نقود يا سيدى . أود أن أسمع منك نصيحة .

قال جوهر : تحت أمرك .

تظاهر الكردى بالاهتمام وهو يقول :

ـ يجب أن أنقذ هذه الفتاة . حتى لو سرقت من أجلها . هل تسمعنى . حتى لو سرقت ما رأيك .

فكر جوهر ، انه ليس ضد السرقة ، فكل الناس يسرقون . لكن هناك طرقا ووسائل لم تخطر ببال الكردى . انه يحب الشاب . ولا يود أن يراه فى السجن . سوف يفتقده . ثم ان الكردى لا يمكن أن يحمى نفسه فى السجن . سوف تموت روحه اذا فكر فى الحرية . رأى جوهر أن من الصعب أن يفسر له هذا . قال :

ـ يدهشنى موظف محترم مثلك .

قال الكردى : الموظف المحترم ـ مثلما تقول ـ قد كسر قلمه . هل تعرف أن رئيسى قد كسر قلمى وهو يقول : سيظلم هذا القلم الحكومى البائس معك يا عزيزى الكردى افندى . أعتقد أن الآخرين يعملون خيرا معك وهانت ترانى . موظفا بلا قلم .

قال جوهر : أهنئك على هذا .

على المائدة المجاورة . يجلس شيخان عجوزان فاقدا البصر تماما . يتحدثان عن القيمة الفنية لأحد المساجد الكبيرة . كان احدهما يعامل الآخر كأنه يرى . فوضع هذا السباب الصارخ حدا للنقاش بينهما فتركا المائدة وذهب كل منهما الى حال سبيله . نسى الكردى فكرته فى أن يصبح لصا مثلما نسى أن ينتحر . كانت الساعة الثانية ولا يعرف أين يقضى الظهيرة :

ـ هل تتناول غداءك معى يا سيدى .

رد جوهر : لا ، أنا لا آكل فى مثل هذه الساعة . ثم انتى لست جوعانا . يجب أن يتعاطى المخدر . لم يعد يحتمل . وعليه أن يعثر على يحيى بأى طريقة .

ـ الم تر يحيى اليوم ؟

– اجل ، رايته عند الست أمينة عندما ذهبت اليوم لرؤية نايلة . كان نائما على الأريكة فى قاعة الانتظار . لم اشأ ايقاظه . أعتقد أنه قضى الليل هناك .

ارتبك جوهر . عليه أن يلحق بيحيى قبل أن يستيقظ من نومه .

– يجب ان اتركك يا عزيزى الكردى . سنتقابل فى المساء .

قال الكردى وقد كسا لهجته بتعبير مثير للرثاء :

– كيف لك أن تتركنى فى حال بائس كهذا ؟

– معذرة . أنا مضطر . السلام عليكم !

عبر جوهر المقهى بخطى متعجلة سريعة . دعاه بعض الزبائن للجلوس معهم . ولكنه اعتذر لهم بلباقة . وبعد أن سار قليلا بصق النعناع وبدأ يشعر بالغثيان . ففكرة الحشيش القريب منه قد عشعشت فى رأسه مرة أخرى . وبخطوات رشيقة عبر الحارات التى تملأها المبانى التى تكاد أن تنهار .

(٣)

فجأة . هب عليه ضوء النهار قويا . اوقف انطلاقه كانت عيناه قد اعتادت ظلمة الشرفة المغطاة . الآن . يجد نفسه لا يتكيف امام ضوء النهار القوى والمثير . يبدو له اشبه بسد منيع . فالحارة التى يسكن فيها ضيقة للغاية . ومكدسة بالقاذورات . والأشخاص الذين يرتكنون بجوار الحائط . او يقفون بجوار الأبواب . ثابتين فى وقفتهم . ينشرون جمودهم لاثناء عزم المارة . على أبواب الأكواخ تمتلىء الأرض بأطفال صغار يعف الذباب على عيونهم . اشبه بحيوانات زاحفة صغيرة . وقد تقرفصت بعض النسوة وهن يغسلن ملابسهن فى طشوت من الصاج . وتقوم أخريات بطهو طعامهن فوق المواقد التى تصدر أصواتا أشبه بالقاطرة . بين الفينة والأخرى يلقين بالشتائم الرنانة لأطفالهن المزعجين .

أمام كل هذه الحواجز المتراكمة . يشعر جوهر بالدوار . ليس عليه سوى ان يخترق هذه الجموع الصماء الصعبة الاختراق

كسلسلة جبال عالية . وتدفعه حاجته الى الحشيش والخوف من فقدانه . فالأمر بالنسبة له مسألة مصير . وبدون أن ينتظر . تقفز . كما يفعل رجل ضرير وهو يستكمل طريقه دون ان يعير الصرخات واللعنات التى يتلقاها فى طريقه اهمية . يحس بالهواء ثقيلا كمن حوله . وان المخلفات الآدمية تسد عليه الطريق كأنها تتحرك غير مبالية . لم يكن الماخور بعيدا ، ولكن يبدو لجوهر ان المسافة تزداد طولا . سار وكأنه نائم . تتكىء يده على عصاه ، وتمتد الأخرى نحو الأمام كطفل يأخذ حذره . ناداه بائع الفجل باسمه وهو يدعو له ببعض الكلمات الطيبة . لم يعره جوهر انتباها . فأمامه الآن شىء آخر غير أكل الفجل . فقد أنسته مرولته للقاء يحيى كل عاداته اليومية .

بعد قليل . رأى المنزل من بعيد فأحس بنوع من الاطمئنان . فماخور الست أمينة ليس بالنسبة لجوهر مكانا للمتعة السهلة فهو لم يدخله قط كزبون ، ولكنه يشغل وظيفة ذات أهمية كبيرة . فهو يصوغ خطابات الست أمينة . ويكتب أحيانا بعض الخطابات الغرامية للعاهرات الأميات . ويبدو هذا شىء يتعلق بالكرامة الانسانية . ورغم هذا المظهر المنحط فقد احتفظ دوما بدور المفكر المتكامل الذى حقق امجاده فى الماضى . فى ذلك العهد الذى درس فيه التاريخ فى أكبر جامعة بالبلاد . ولكن فى تلك الآونة لم يكن هذا بالأمر المقبول – بكل هذا الجانب الأكاديمى – ولم تكن سببا لوجوده . ففى هذا الوسط تبدو الحياة قبيحة . فجوهر لم يخدع أحدا ، ولا يؤمن بكذبات الفلاسفة الكبار التى كان يؤمن بها فى تلك الآونة . هذه الحرية الفكرية التى كانت تصيبه من مهنته الجديدة سببت له سعادة غامرة ، سعادة رائعة لا حدود لها . ووجد نفسه يترك كل هذا العالم ليعمل فى هذا الماخور بأحد الأحياء الفقيرة مما سبب له متعة كبيرة . كم أبعده هذا عن المنازعات

وصراع البشر وافكارهم حول العقل والحياة . كل هذه الأفكار الكبرى التى أعجب بها طيلة سنوات ، تبدو له الآن أشبه بحشرات سامة . تجردهمن سلطاته . فان قيام المرء بتعليم الحياة دون أن يعيشها أشبه بجريمة الجهل غير المرغوب فيه .

اما هذا العمل الذى قبل به فهو اقل عبودية ، لا يتطلب مجهودا ، لأن مثل هذه الخدمات التى تعد عالية القيمة . تجعل الست امينة تمنحه من وقت لآخر قطعة معدنية فئة العشرة قروش والتى لا دخل له سواها . تكفيه كى يعيش . فهو يدفع مبلغا بسيطا كأجرة لغرفته . اما بالنسبة لطعامه . فان تجار الحى يشعرون بالسعادة . وهم يقدمون له ما يسد رمقه . فهم يحبون حديثه كثيرا . يعامله البعض كنبى . ينظرون اليه باحترام شديد لكن جوهر لم يعتمد ابدا عى مثل هذه المجاملات . فهو لم يطلب شيئا أبدا . واذا كان عليه أن يوافق . فان ذلك يحدث بصورة لا تهين مشاعر هؤلاء الذين يقدمون له متطلباته .

توقف ، وأطلق تنهيده .

يقع خلف هذا السور المغطى بنباتات كثيفة – التى تخفى كل ما يدور بالمنزل – ذلك الذى يوحى بالثراء . ذو واجهة ضيقة صفراء . يتكون من طابقين . وفناء صغير مبنى بالطوب اللبن ، تملأه الركام التى تفصله عن الحارة . دفع جوهر الباب الحديدى ، وامسك عصاه من منتصفها . وضبط طربوشه فوق رأسه . ثم صعد السلم الذى يؤدى الى الدور الارضى بكل الثقة التى منحه الله اياها . كان الباب مغلقا من الداخل ، طرق جوهر مرتين بعصاه وهو يكاد يسمع دقات قلبه . لم يسمع شيئا كأنما المنزل خاو . جيم صمت ثقيل على نفس جوهر ، ربما ليس هناك أحد لعل يحيى قد رحل منذ وقت طويل . انتابه قلق شديد . وتوقفت كل اعضاء جسمه كأنما اصابها شلل مميت ..

بعد فترة طويلة فتح الباب . تنهد جوهر . بدت الفتاة التى تقف امامه اشبه بعروس من الحلوى المغلف بالورق المفضض . ترتدى قميصها من الحرير الوردى . ذا أكمام قصيرة . مطرز بخيوط خضراء وقد بدت علامات الاحمرار الشديدة وقد تغطت سواعدها بسوارات من الذهب . وقد اكسب شعرها الطويل لوجهها جمالا غريبا وحشيا . اشبه بوجوه تلك الرسومات الشعبية التى تغطى جدران المقاهى البلدية . يزيدها الكحل الذى تكسو به عينيها جمالا . يعرفها جوهر . فهى نزيلة جديدة . جاءت منذ فترة قصيرة من قريتها . تقترب من السادسة عشر من عمرها وتدعى أرنبة . منذ ان جاءت وهى محط أعجاب الجميع . ينتظرونها لساعات حتى تنتهى من عملها .

حياها جوهر فابتسمت . عندما انفرجت شفتاها بدت كفتاة صغيرة أكثر منها كامرأة . قالت :

– أنت . ادخل . لا يوجد أحد . ذهبت الست امينة الى المدينة لعمل بعض المشتريات وأخذت البنات معها .

دخل جوهر الممر الذى يستعمل كقاعة انتظار . وجد نفسه – مرة أخرى – فى مكان ظليل وأحس بتراخ فى أعصابه المشدودة لم يسترح بعد تماما . فهو لم ير يحيى فى أى مكان . سألها :

– اليس يحيى هنا ؟

قالت الفتاة وهى تنظر حولها : كان نائما لتوه فوق الاريكة ثم خرج .

أحس جوهر بالاحباط . ود أن يسألها عما اذا كانت تعرف اين ذهب يحيى . ولكنه تراجع :

– سوف انتظره . لعله يرجع .

– انتظره . كما تشاء .

– هل أنت وحدك هنا ؟

– اجل . لم أذهب معهن لاننى وددت ان اغسل شعرى . أسفت اننى لم اذهب . فقد ركبن عربة حنطور .

بدت مترددة قليلا . ثم دخلت احدى الغرف التى تقع فى الممر . واغلقت الباب خلفها بينما ظل جوهر وحيدا . القى نظرة حوله . واخذ يفتش عن مقعد . فقد كانت قاعة الانتظار عارية الجدران . بسيطة الأثاث . فلا يوجد فيها سوى اريكة فوقها غطاء مزركش واربعة أو خمسة مقاعد فوتيل ومائدة عليها منفضة سجائر . انه نفس الديكور المتواضع للمواخير الموجودة فى الاحياء الشعبية . الان . وقد انفض المنزل من زبائنه . ومن اجوائه المثيرة . ومسرحه الظاهر . أحس جوهر بالاكتئاب . فاطلق تنهيدة واختار لنفسه مقعدا جلس فوقه . أهاج هذا الخواء الكئيب المنبعث فى الصالة جوهر بطريقة ملحوظة . فهو لم يات قط فى مثل هذه الساعة من النهار . بدا كل شيء فى البيت غريبا وعدوانيا . وضع عصاه بين ساقيه . ودس قطعة من النعناع فى فمه وبدا فى امتصاصها بلذة .

تقلص احساسه بالحشيش بشكل ملحوظ . واحس بالراحة وأنه موجود فى نفس المكان الذى جاء اليه يحيى . فكر فيه بحنان صادق . فالارتباط الذى يربطه به لبس الحشيش وحده . يكن له شيئا من المودة أقرب يتعلق الفرد بالحياة . فيحيى شاعر يائس . يعيش حياته بلا سعادة أو مجد . يمارس الصعلكة وبوعى شديد . لقد دخل السجن عدة مرات بتهمة تعاطى المخدرات هناك حكايات رتيبة تتناولها الافواه للنيل منه . يشكون فى أنه خائن أو أنه يعطى المعلومات للشرطة حول شركائه فى تعاطى

المخدرات . الحقت به شهرته كمرشد أكبر الاذى بين المتعاطين . فأصبحوا يحاذرونه . لكن من الصعب معرفة الحقيقة في هــذا المضمار . ولم يحاول يحيى يوما ان يبرىء نفسه . مهما كان فقد ظلت الخيانة بالنسبة له مسالة مزاج وكرم اخلاق . فكل شيء سواء بالنسبة له . ولم يقلل هذا من شعوره نحوه يوما . فهـو يتقبل كل التناقضات برجولة وتفاؤل . هو انســان بلا كرامة . وهذا لا يجعل الدنيا تكف عن الدوران . فجوهر يعجب به لأنه يشعر بلذة الحياة : الحياة بلا كرامة . فان يكن المرء حيا فهذا كاف لجلب السعادة .

ابتسم جوهر وهو يتذكر الكردى . حين يفرط في متاعبه ، ربما اكثر مما هى عليه في بحثه الدائم عن الكرامة الانسانية : « اهم شيء بالنسبة للانسان هو أن يفتش عن كرامته » . كل هؤلاء الناس الذين يبحثون عن كرامة ! اى كرامة ! فليس تاريخ البشرية سوى كابوس دموى طويل لغباءات من هذا النوع . كان وجود الانسان حيا ليس كرامة في حد ذاته . الموتى فقــط هم عديمو الكرامة وجوهر لا يحترم سوى الابطال الاحياء . وهؤلاء — بلا شك — يتحرجون فيما يتعلق بمسالة الكرامة .

ليست المشكلة بالنسبة له أن يعود الى غـرفته ، فالنائحات لازلن يطلقن صرخاتهن . ورؤية هؤلاء النسوة المتوحشات فريسة لمشاعر مرتزقة تصيبه بالرعشة . يحس أن رأسه ثقيلة ومــن الصعب ان يحتفظ بعينيه مفتوحتين . فقد غرق المنزل في صمت قاتل دفع جوهر ان يفط في النوم لم تعد له رغبة في رؤية يحيى . ترك نفسه يغرق في النوم . اغلق عينيه وهو يحاول ايهام نفســه بالتعب .

مرت فترة طويلة لدرجة انه لم يسمع الفتاة تفتح الباب :

— هل نمت ؟

فتح جوهر عينيه . رأى ارنبه واقفة بلا حراك أمام عتبــة الباب . يرسم ضوء النهار المنساب عبر اقمشة رداءها خطوطا على جسدها العارى المنتصب . تردد جوهر لحظة ، أعتقد أنه يحلم . ثم قال :

— لا . وانما أستريح قليلا .

قالت الفتاة : أود أن تكتب لى خطابا .

تقدمت نحوه . منغمسة فى ضوء الباب وكأنها تدفع النور المتخافت حولها . وكأنما آثار الظلام عريها . فدعك جوهر عينيه . اثاره هذا المشهد الغريب . وقفت الفتاة أمامه . وقد ارتسمت على شفتيها الممزوجتين بأحمر الشفاه ابتسامة جذابة . بدا عليها انها فتاة تختلف تماما :

— لمن تريدين أن أكتب خطابا ؟

— الى عمى فى البلدة . لم اكتب اليه منذ جئت هنا . ولعل القلق أصابه .

آثر جوهر الصمت . ليست كتابة خطاب بالشيء السهل فى هذا الوقت ، فهو غير قادر على التركيز ولا على أن يمسك قلما . وقد سبق أن رفض طلبا مماثلا من قبل . ظهـرت ارنبــه كى تقتــل شكوكه بأسلوبها الخاص وهى تقول :

— سوف اكافئك .

قال جوهر : ساكتب لك الخطاب . هل لديك ما يلزم ؟

قام بصعوبة . وتبعها الى غرفتهــا . انها غرفة عامرة غالية الثمن . بها سرير حديدى كبير ، واريكة . ومقعد ودولاب ذو

مجراة . شم البودر والروائح الغالية . غطى السرير بملاءة خضراء كستنائية . تبدو مستوية . فالعمل لم يبدأ بعد . اسرع جوهر واغلق النافذة ، فاعصابه تبدو ساكنة في الظلام . وهذا هو الحل الأمثل للهروب من الألم . فتشت أرنبة في الدولاب عادت ومعها وريقة وقلما أعطتها لجوهر . ثم جلست على طرف السرير . وبدأت في تامله وقد انتابتها غريزة فضول غريبة .

ترك جوهر جسده يخور فوق الأريكة . ووضع عصاه قريبة منه ، ثم تاهب للكتابة ، انتظر ان تمليه ما تود كتابته . لكنها بدت كأنها نسيت سبب حضوره . وان الأمر لا يعدو مزاحا . عادت اليها ابتسامة الفتاة الصغيرة المتقلبة .

هل تود أن ترى يحيى ؟

رد جوهر : اجل ، أريده في مسالة عمل .

ـ هل الأمر عاجل ؟

ـ عاجل للغاية ، ولكن لا يهم . فحتما سيعود .

ـ أنا آسفة لانه ليس هنا . لعله سيتاخر .

لم يعد جوهر يحتمل ألمه . لقد أثارت كل حميته وهي تنطق باسم يحيى . سألها :

ـ هل تعرفينه جيدا ؟

ـ من ؟ يحيى ، انه كثيرا ما يسليني . يبدو انه شاعر كما يزعم .

ـ قال جوهر : انه شاعر كبير .

ـ غريبة ! حدثني . هل يعتاد الشعراء طلب النقود من الفتيات ؟

اثار كلاهما انتباهه فجأة . لم يعرف ان يحيى ينتهج هذا الأسلوب . فهذا أمر جديد عليه .

ـ لماذا ؟ هل طلب منك نقودا .

ـ أجل . فقد حكى لي قصة تتعلق بامه . يبدو أنها ماتت وانه في حاجة لنقود من أجل مراسيم الدفن . قال انه يحتفظ بالجثة منذ أسبوع . ما رأيك ؟

حاول جوهر ان يطلق ضحكته ـ رغم ماساوية الموقف ـ يعرف ان الحكاية ملفقة . وان قصص يحيى الخيالية يمكنها ان تبتز النقود من معجبيه . فعندما يتعلق الأمر بالنقود فعلى خياله أن يلتهب . خاصة اذا كان في الأمر شراء حشيش .

ـ وهل اعطيتيه ؟

ـ ردت الفتاة : لست غبية ، فانا أرسل كل ما أكسب لعمي الذي رباني . وقد حذروني من النصابين .

قال جوهر : أنت فتاة جادة .

قالت الفتاة ضاحكة : هل تسخر مني ؟

ـ أبدا . أنا واضح .

فكر جوهر في المشاعر المتقدة التي أوقظت فيه دائما ابعاد حياة يحيى والتي جعلته يغرق في أدق تفاصيل حيوات المجانين . فوراء هذه القصة توجد حقيقة مؤلمة يصعب تجاهلها . لقد وصل يحيى الى حد انه يريد توفير النقود فوق اشلاء أمه . وهذا لا يسبب له أي دهشة باي معيار . يتخيله يفعل اشياء أكثر جنونا . وهذا يعني انه يبحث عن مصادره . فهو محظوظ لأنه يفتقد الحشيش دائما عنده . وجوهر يحسده لهذا الاكتشاف . ود جوهر ان

يغادر الغرفة ، وان يهرول بحثا عن يحيى . ولكنه لم يفعل شيئا .

نظر تجاه الصغيرة .

كانت جالسة على طرف السرير ، وقد باعدت بين ساقيها . لفت مئزرها حول جسدها ، وبرز صدرها الناهد عبر القماش الحريرى كأنه الرمان الناضج . تأملها جوهر بنظرة ثاقبة . متأملا جمال الفتاة . ترتسم ابتسامة تائهة على شفتيها المصبوغتين لتبدو كأنها تلقيه فى شباكها . اختنق جوهر . فاقتراب مثل هذا الجسد البض قد يشعل فيه رغبة بالغة الحدة . فمنذ زمن طويل لم يرغب فى امرأة . وقطع كل اتصالاته مع كل الخلق .. واصبحت حياته مكرسة للأشياء الأكثر بساطة ، لم تكن خاضعة يوما لقياس العواطف ، استمرت بلا ألم . أشبه بحلم صاف . لا حاجة للمخدر ، ومن جديد طرقت حاجته للمخدر داخل وعيه فأردته ضعيفا . كم من الوقت عليه أن ينتظر ؟ يشعر ان اعضاءه سوف تخونه . وستصبح رخوة بلا مقاومة . ويلزمه مجهود شاق كى يتغلب على نفسه وأن يسيطر على الرغبة التى تجمع فى جسده . وعليه أن يقتل شكوكه بسرعة .

– متى طلب النقود ؟

ردت : هذا الصباح . تحادثنا معا قليلا . بدا حزينا وضعيفا .

لم يساوره الشك . فيحيى لايغدو حزينا وضعيفا. الا عندما يفتقد المخدرات . انها الحالة الوحيدة التى يضعف فيها تفاؤله . ود جوهر أن يبعد اليأس عنه ، لكن الثقة التى اولاها ليحيى قد انقذته . وعلى كل فسوف يتصرف يحيى من أجل توفير مخدره .

فله الف طريقة للتصرف ، وجوهر يؤمن بالمعجزات . ليست المعجزات العظيمة . ولكنها المعجزات العادية البسيطة الحياتية والمخدرات هى أحدى المعجزات .

– ماذا تودين أن أكتب الى عمك ؟

تخلت ارنبه عن ابتسامتها وسلوكها كفتاة صغيرة . وكست وجهها بملامح الجدية والعمق وقالت :

ما يكتب فى مثل هذه الحالات . قل له أننى على مايرام ، واننى معجبة بهذا المكان . واعمل كثيرا . أعتقد أن هذا يكفى .

أخفض جوهر رأسه وبدأ فى الكتابة . لكنه فى الحقيقة لم يستطع أن يكتب شيئا . وضع الوريقة فوق ركبتيه ، وأمسك القلم بأصابع مرتجفة . وافعم أفكاره كى يجد جملة يبدأ بها . فهذا الرجل ليس عمها . كيف لعاهرة أن تكتب لعمها ؟ تردد جوهر بين صياغات عديدة . فهو لم يعرف قط كيف يمكن تبادل المشاعر العائلية .

رفع رأسه مرة أخرى ونظر الى الفتاة . فالرغبة التى انتابته منذ لحظة لم تترك فيه أى أثر ، لقد فقد هذا الجسد المنساب فوق الفراش الأخضر بصورة مثيرة جاذبيته . واستولى عليه خاطر هو السوارات الذهبية التى تحوط ذراعى الفتاة العاريين .

تمثل السوارات الذهبية بالنسبة له شعورا خاصا ، لم يبعد ناظريه عنها . وخلال بضع ثوان أحس بالاضطراب . وضع يده فوق جبهته وهو يرتجف . مقاوما كل رغباته ضد هذه الأفكار الكريهة التى تجثم عليه رغما عنه . حاول أن يطردها عن تفكيره بيأس واضح ولكنها قاومت كل ابتهالاته ، فهذا الذهب يساوى كمية لا بأس بها من المخدرات ، وتضمن له أن يعيش فى مزاج

كامل شهورا طويلة ، ربما لسنوات . حاول جوهر ان يحدد كمية المخدرات التى يمكن ان يشتريها بمثل هذه الثروة ، لكن جسامة موقفه اشلته ، فتوقف عن حساباته وعاوده حلم السفر . لم يعد املا بعيدا ، لقد أصبح الآن أكثر قربا . أصبح السفر الى سوريا حقيقة ملموسة . تخيل ادق تفاصيل الرحلة الى بلاد الأحلام حيث ينمو الحشيش فى الحقول كالحشائش . غـزا الاغراء مخـه بصور من العالم الآخر ، ورأى نفســـه يرتمى على الفتاة وينزع منهـا سوارتهـا . فى نفس اللحظة التى حركت ارنبة ذراعيها وهى تهز الحلى الذهبية وسط صمت الغرفة . خرج فجأة من أحلامه وشرع فى الكتابة بكل حماس .

انتاب أرنبة زهو . لم تشك لحظة فى موقف جوهر الغريب . تعرف انها حسناء . وبدا لها ارتباك الرجل بسبب تلك الرغبـة التى ولدتهـا فيه . فتاة قروية وساذجة ، لا تعرف شيئا بالمرة ترى ان رغبة جوهر هى الشىء الوحيد لارضائه وعليها أن تكافئه .

ظل جوهر يكتب وهو يحاول ان يتماسك . حتى العبارات التقليدية لم يستطع صياغتها انتابه قلق شديد . غرق لحظة فى محاولة عبثية لابعاد العنف عن ذهنه . فالعنف هو الشىء الوحيد الذى لا يخطر بباله . كيف حدث هذا ؟ أحس انه ليس جوهر وان شـخصا آخر يدفعه فى مغامرة لارتكاب حماقة تنخر فى نفسه .

ـ لا تنس أن تخبره أننى سأرسل له نقودا قريبا .

اختلج جوهر وهو لا يعيرها انتباها ، تسربت الفتاة قريبة منه فوق الأريكة . أربكه وجودها الى جواره . تملكه خوف وقال :

ـ أى نقود ؟

ـ ألا تعرف أى نقود ؟

ـ بالطبع . بالطبع . معذرة ، فأنا مرتبك قليلا .

لم تتصور أرنبة ان سحرها يمكن أن يثير جنون رجل الى هذا الحد ، دفعها غرورها الى المزيد . فبعد الظهيرة أعلن عن نزهة ممتعة فى عربة حنطور مع الست أمينة وبنات الماخور . وكم أحسـت بالأسف لحظة . أما الآن فانها تجد هذا أفضل . اقتربت من جوهر وأحنت رأسها تحاول أن ترى الرسالة من أعلى كتفه ، داعبت وجنته متعمدة . وعندما ارتبكت كل أعضائه أدركت أنه بلـغ النشوة . فاطلقت ضحكة طفولية مليئة بالعصبية ، وقالت :

ـ أنت تكتب جيدا ، اذن فقد ذهبت الى المدرسة .

رد دون ان ينظر اليهـا : أجـل ، وأنت . ألم تذهبى الى المدرســة ؟

قالت أرنبة بصوت ملىء بالازدراء :

ـ لماذا أذهب الى المدرسة ؟ أنا غانية .

قال جوهر : أنت على حق . لم أسمع كلاما مماثلا من قبل .

ـ أنت تسخر دائما منى ، ولايهمك ، فأنت لطيف .

اقترب الخطر أكثر . تملكه نوع من الذهول ازاء جاذبيـة السوارات الذهبية ، لم يعر لمسات الفتاة انتباها . فهذه السوارات تمثل بالنسبة له قيمة لا تقدر بثمن ، أنهـا تمثـل المخـدرات التى يفتقدها منذ الصباح .

أنهى رسالته بسرعة وسألها : هل تعرفين التوقيع ؟

قالت : لا ، اكتب اسمى فقط ، اسمى أرنبة .

قال جوهر : أعرف ، وهو اسم جميل .

وقع الرسالة . سأل الفتاة عن عنوان عمها ودونه على المظروف . لقد انتهى الآن ، ويستطيع ان يذهب ، ويهرب من هذا الاغراء الأبدى . قال :

ـ هاك الخطاب .

ـ أشكرك . احتفظ به معك . ضعه فى صندوق البريد . سأعطيك ثمن الطابع ..

لم يجرؤ على الحركة . لا يعرف اى رباط يربطه بالأريكة . يموت من الخوف وهو يسمع خشخشة السوارات ، وكأنما ارتبط وجوده بهذه الضجة المثيرة . شك لحظة ان الفتاة تتعمد هز ذراعيها . هل لاحظت شيئا ؟ لا . انها سوف تملأ الحى بصراخها . وهى ليست بالغة القوة كى تتسلى بمثل هذه اللعبة .

قامت أرنبة ، وسارت فى الغرفة . ثم انفجرت ضاحكة واقتربت من جوهر قائلة :

ـ يمكنك اذا شئت .

أحس أنه يغرق ، مثلما حدث فى حلم الصباح . وان فيضان النهر يغرقه فى أعماقه . حاول يائسا أن يسبح ، ان ينقذ شيئا من صفائه . لكن بلا جدوى . لاشىء يمكنه أن يتركه فى سلام . تملكته رغبة متوحشة ان يمتلك السوارات . مقاوما وعيه . وراى ـ داخل هذيانه وخلف هذه السوارات ـ حقول الحشيش الواسعة

المنبسطة بلا نهاية تحت السماء . كانت الرؤية حادة وسريعة . توقف جوهر عن التنفس . فكر أنه سيرتكب جريمة . وقد بدا له هذا أمرا بسيطا سهلا . أجل عليه أن يقتل هذه الفتاة . لم ير أى وسيلة أخرى كى يخلصها من هذه السوارات . ملأه هذا اليقين بهدوء مخيف .

علا القلق وجه العاهرة الشابة . لم تعد تبتسم ولأول مرة ألقت على جوهر نظرة يملأها الشك وبدت أسباب هذه الرغبة التى لم تفهمها مثيرة للقلق . لكن لم يدم قلقها طويلا . فببطء شديد خلعت مئزرها وألقت بنفسها فوق المقعد . وبدت رائعة أمام عينى جوهر الزائغتين . اقتربت منه وأمسكت ذراعه وأرادت أن تجذبه .

ـ تعال . هيا ، بسرعة .

خلص جوهر نفسه منها ، بينما أصدرت السوارات ضجة أشبه بالرعد ، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان . انسال على جسده عرق بارد . ارتعد ، قام فجأة وسحب الفتاة ناحية السرير وهجم عليها . أطبق بيديه على عنقها قبل ان تتمكن من الصراخ . فتحت عينيها الواسعتين اللتين اعترتهما دهشة غريبة . لم تفهم ماذا يحدث . لم يحتمل جوهر نظرتها . ضغط بأصابعه بكل ما يملك من قوى . مدت الفتاة ساقيها نحو الأمام فى حركة دفاع أخيرة . أغلق جوهر عينيه ، وران صمت طويل . ملىء بالظلمات . بينما استمر فى خنقها . حتى سقطت رأس الفتاة محدثة ضجة .

لقد ماتت .

قام بصعوبة وهو يلهث . تمدد جسد أرنبة العارى بطول السرير فى وضع يثير الرثاء . عليه الآن أن يخرج السوارات . وهذا

هو أصعب مافى الأمر • رفع جوهر ذراع الفتاة وأمسك احدى السوارات • وأراد أن يزلقها من معصمها • الا أنه أحس بصدمة • استرد وعيه فجأة وأطلق صرخة مليئة بالألم •

سمع صوتا مكتوما • فالسوارات ليست سوى حلى مزيفة • انها ليست من ذهب • وجوهر يعرف ذلك دوما • ويمكن لأى طفل صغير أن يميزها • كيف ارتكب خطأ جسيما كهذا ؟ لم يجد تفسيرا • ربما ان هذه السوارات تساوى قروشا زهيدة اشترى بثمنها جريمة قتل •

أنه الآن بالغ الهدوء • فقد تخلص تماما من الصدمة • ترك جثة الفتاة • واستعاد طربوشه الذى سقط فوق السرير ووضع الرسالة فى جيبه ثم توجه نحو الباب • كانت قاعة الانتظار خاوية ومظلمة تماما • يبدو أنه لم يأت أحد أثناء هذه الفترة • نزل جوهر السلم ببطء ، وخرج الى الحارة وقد بدا طبيعيا ، وحيا أحد المارة الذى لايعرفه بهزة بسيطة من رأسه •

بعد كل هذه الحكاية • فهو لم يعثر بعد على يحيى • أين يختبىء يحيى اذن ؟ هذا هو السؤال الذى يؤرقه طويلا •

(٣)

تسلل الضوء من مصباح الغاز حتى أطراف المائدة • حاول يحيى بعينيه الضعيفتين أن يمسك وجه أمه القابع فى الظلام ، لايرى منها سوى يديها العجفاوتين • وهى ترفى قميصا رجاليا ، عليها أن تنجز بعض العمل من أجل أسرة برجوازية فى المدينة • يشعر باهانة لأن أمه تمارس مثل هذا العمل ، خاصة ان هذه الاهانة تكسوها بالحزن • بالمهابة والجدية فى حركاتها • وكأنها تبدع عالما غامضا وأفضل • تبدو وكأنها ستنقذ بهذه الاكذوبة أسطورة البؤس الجدير بالوقار • يالها من خدعة . ماذا يدفعه هذا المساء كى ينظر الى وجه أمه • لعله يشبه وجهه • فتح عينيه باتساعهما • حملق فى هالة الضوء الساقطة من المصباح ، لا شىء ، ظل وجه أمه غامضا ، ينادى فى أعماقه ، حاول أن يتذكر ملامحها ، من الصعب بالنسبة له أن يحدد الصورة بالضبط • كأنها ثقب أسود لم ينظر اليه طيلة هذه السنوات • وقف عاجزا أمام ذاكرته التى أصابها عدم تام ، أراد أن يطلب منها أن تقترب قليلا ناحية الضوء ، ولكنه

تراجع · فهو لايود أن يزعجها · ينظر اليها بود ، لعلها كانت بالغة الجمال · اما أنا فاشبه ابى » لا يذكر أباه جيدا · وهذا أيضا شيء غريب · هؤلاء الناس أتوا به الى الدنيا · وعاش معهم سنوات طويلة ، يبدو الآن أنه لم يراهما عن قرب ·

لماذا يهتم فى ذلك المساء بمسالة دمامته ، فهو لم يعتد النظر فى المرآة · ربما يخاف « هل بدأت أخاف فجأة » ضحك ساخرا مرة أخرى · الاقذار ! انهم يسخرون منى فى الصحف والمجلات الأدبية التى تصدر فى العاصمة · اصـــبح موضع سخرية كل الشرق المثقف · هؤلاء الصحفيون الأقذار لايتركونه فى حاله قط ، يمسون دائما شيئا خاصا فيه عندما يكتبون عن دمامته فى مقالاتهم القذرة · نشر أحد رسامى الكاريكاتور صورته تحت عنوان « القبح مجسدا » واجه يحيى هذا الهجوم بضعف وخوار · كأنه طفل صغير · هل يتصور هؤلاء الأغبياء انهم قادرون على وضعه داخل هذا الاطار ؟ انهم لا يعرفونه · فدمامته سر قوته ·

لعل هذا يمكن ان يدور فى كل مكان ، ولكن ليس أمام قاض فى محكمة · هناك وجد نفسه ضعيفا غير قادر على الدفاع عن نفسه · حتى محاموه المساكين عجزوا عن الدفاع عنــه · فقدوا كرامتهـم أصابهم الخرس فجأة · تخبطوا فى دفاعهم دون أن ينظروا اليه · بالهم من عصابة أفاقين · يحتقرهم أكثر من الآخرين · عدا واحدا منهم ترك له ذكرى لاتنسى · رجل شجاع على خلق عال · يتكلم بوجهه كما يفعل العباقرة · وطوال ساعة لم يضحك القاضى خلالها · بدا كمن يكتم ضحكة وكأنه غير قادر على الفهم · انتهى المحــامى وسط صمت مدهش · لم يصدق القاضى أذنيه ، نظر حوله كأنه خارج من حلم واسترد وعيه أخيرا ونطق بالحكم ·

كان الحكم هذه المرة أشد قسوة من المعتاد ، ثمانية اشهر ، ولكن يحيى كان سعيدا وبدأ يتصرف كأن شيطانا مسه ·

لم يكن السجن سيئا بالنسبة لروحه القادرة على تقبل كل الظروف · كان نوعا من الراحة بعد تعب من حياة الصعلكة · يتذكر مكتبه وهو يجلس خلفه · هذه الوظيفة ذات الاهمية أتاحت له بعضا من حرية الحركة · يتصرف كمدير كبير · لا حدود لقدرته · يستقبل التهانى · كان هذا شيئا رائعا ، لكنه سمح ليحيى ان يتسلى كثيرا · فبمجرد وصوله الى المبنى القبيح أثار قلق الناس · وسرعان ما قوبل بعاصفة من الفرحة · يملأ المكان بنكاته وروحه المرحة · حتى السجانون فقدوا عجرفتهـــم المعهـودة · وتركوه يتصرف كما يشاء ، اما مدير السجن ــ الذى طالما أعجب باشعاره ــ فقد كان يجد المتعة فى الحديث معه · استقبله فى مكتبه استقبال وزير · وهكذا كانت حياة يحيى فى السجن أشبه بحياته خارجه · وربما أفضل · كل ما يطلبه يجده · الطعام والراحة وربما أكثر · أصبحت الحرية مفهوما مجردا · حتى الحشيش لا يخشى شيئا من ناحيته فهو موجود فى ردهات السجن مثلما يحدث فى المدينة · ويمكن تداوله بألف وسيلة · خاصة النقود ·

أكسبته شهرته كشاعر مكانة مرموقة بين زملائه الأميين · فهو الذى زاوج المساجين فيما بينهم · لقد حمته دمامتــه من الخطــر الحقيقى · كان يجب أن يكون ضريرا حتى ينغمس فى الملذات ولحسن الحظ لم يكن هناك ضرير فى السجن ·

من جديد ود أن يخترق سر هذا الوجـه الذى يختفى فى الظل · يتلاشى كل شيء أمام نظره الضعيف · هل يبعد المصباح ؟ خلقت هذه النقطة المضيئة فيما بينهما صحراء لا حدود لها عرقص

قدميه فوق المقعد واطلق آهة طفل مريض . لم يحدث تغيير على الجانب الآخر من المائدة فهى لم تتحرك حتى الآن .

قال مغالبا نفسه :

ـ أماه ..

ظلت صامتة ، لم يستطع أن يخلصها من المعاناة والتعب الذى انغمست فيهما ، استمرت فى رتق القميص . ياللعجوز المسكين التى تمارس عملا حقيرا لكنه شريف . يؤكد كل سلوكها ان هناك مهنا شريفة . كم أعطته دروسا أخلاقية . لكن من تتصوره ؟

ـ أمـــاه .

لاحظ فجأة توقف الأصـــابع . لاتزال ابرة مغروســـة فى القميص . يسيطر على الغرفة صـــمت مميت . وتلزم الأم الصمت دوما ، يقال انها تخشى الكلام حتى لاتفقد سحرها . خرجت أخيرا من صمتها وقالت :

ـ ماذا ؟

ـ قولى لى . هل كنت جميلا وأنا صغير ؟

ياللسؤال الخبيث ! يعرف أنه يثير موضـــوعا مرعبا . ماذا ستفعل ؟ هل تبكى أم ترد ؟ لايمكن أن يحدث الألم الذى يسببه . فهو لا يرى سوى يديها المعجفاوتين . موضوعتين الآن على حافة المائدة . أراد أن يربكها أكثر ، تقدم بوجهه من ضوء المصباح كي يمكنـــه أن ينزع ذلك القناع الآدمى البائس . انهـــا الآن غير قادرة على الحراك ، أمسكها ابتسم وهو يكشف أسنانه الطويلة التى أكسبت وجهه ملمحا وحشيا . فعلا . لا يوجد أفضل من اسعاد قلب أم .

بدت كأنها تخرج من غفلة طويلة ، نظرت الى ابنهـــا بحـــب

وحنان . رجل فى الخامسة والثلاثين أضاع حياته كطفل . أكثر وعيا ، وأكثر متعة من طفل . أبدت ترددا فى أن يحيى قد يتصرف برقة وهى تفكر : « عليها ان تبذل أقصى مابوسعها » لايشك لحظة فى ردها :

ـ ماذا يا أمى ؟

قالت : أجل . كنت جميلا .

مستحيل . كيف تغيرت الى هذه الدرجة ؟

قالت : لم تتغير .

لعلها مجنونة . حاول يحيى أن ينظر الى المرآة . آمن للحظة بالمعجزة التى شوهت وجهه . لا . الأمر أكثر بساطة من ذلك . عليه ان يعرف ان عينى أمه أشبه بعيون المها . وان هذا ليس وهما ولا شفقة . انه رد من أم حانية . أحس انها سعيدة بردها . وانها تؤمن به بكل صدق .

ـ وأبى ؟

ـ ماذا عن أبيك ؟

ـ هل كان جميلا ؟

ـ كان أبوك رجلا نبيلا .

ـ يالها من نكتة .

غرق يحيى فى الفرح . كم من مرة قالت ان أباه كان رجلا شريفا . ومع ذلك فغلطتهما انهما أورثاه التعاسة . وريث أسرة كبيرة تملك عقارات . بذر نقوده فى القمـــار وطقوس العربدة .

حين مات لم يترك سوى الديون . كان يحيى فى تلك الآونة شابا صغيرا . لم يمسه موت الأب كثيرا . فهو لم يعرف الحياة التى عرفها أبوه . رجل شرقى حقا .

لم تكلمه أمه أبدا عنه . ترى ان هذا موضوع لا يليق الكلام فيه . فيجب الا يدان زوجها . آمنت ان معاناتها من زوجها نوع من القدر المحتوم تحسد عليه . لم يسمعها يحيى تقول عنه كلمة سيئة يوما . تردد أن زوجها رجل شريف . فكر : « تغفر الثروة كل شىء . تعجبها حماقاتى لأنهن يحببن أجواء المآسى » مسكينة . ليس لأحد الحق ان يكون سىء السلوك . وهذه البديهـة هى الحقيقة الوحيدة على الأرض بالنسبة لها .

وكى تستمر ، فانها تمارس الآن هذا العمل المثير للخزى : ترفا ملابس الأسر الثرية التى ترثى لحالها . مرت كل سنوات الكفاح المرير مع هذا الابن العاق بلا جدوى . ولم تغير من رأيها عن سلوك زوجها الم يكن رجلا ثريا وقورا ؟ وهذا يغفر له كل شىء . هذا النوع من الوفاء صعب الوجود بالنسبة ليحيى . انه الشىء الوحيد الذى يجعلها تتعلق بالحياة . فذكرى الميت ليس لها هدف آخر سوى مزج هذا الاحترام الواجب بالرثاء .

في هذه الغرفة التى تقع فى القبو ، ذات البلاط الكبير ، والتى غطت الرطوبة حوائطها تتمثل عفونة الطبقة البرجوازية رغم تفكك قطع الأثاث ، ويبدو الفقر ماثلا ، بين هذه الأشياء الغريبة الغارقة فى الظلال يوجد دولاب بجوار الحائط نجحت نقوشه فى انقاذه من التسوس ، يوحى الدولاب بجو من الغموض يثقل فوق يحيى . يفضل ان ينام فى الشارع بدلا من النوم فى هذا المسكن الفقير

الذى ينذر بالوقار . يبدو ان الدولاب – المكوم فى الظلام – يهدده بارتفاع قامته . يرتعد يحيى فالجو بارد . ولا شىء يمكن أن يدفىء هذا القبو المثلج . حتى رشـفة الكحول التى ارتشفها . احس بالحزن يغزوه . انه يثقل عليه عندما يجىء لزيارة أمه . البارعة فى فن تقطير الحزن . تنسج الحزن مثلما ينسج العنكبوت خيوطه .

حمحم يحيى كى يتخلص من البرد . أحس بساقيه ترتعدان ، وان شيئا ناعما يوخزه . أين يختفى القط ؟ انحنى كى يمسـكه وضعه فوق ركبه وبدأ فى مداعبـة شـعره . ارتجف الحيـوان الصغير . وهو ينظر اليه بحدة . تسلى يحيى يوما بأن أعطـاه قطعة من الحشيش . ومن يومها . وكلما اتيحت له الفرصة يكرر نفس الشىء . انه بالتأكيد القط الوحيد الذى تناول مخدرات . بدا فى العصبية وود لو خربش . وجد يحيى نفسـه فى موقف حساس . فهو لا يملك سوى قطعة صغيرة من الحشيش . ولن يقتسمها مع القط . فلكل مداعبة حدودها . لكن كيف يجعـله يفهـم ؟

تخلص من القط ، ومن جديد نظر الى أمه . التى استسلمت لحلمها الداخلى . لعلها تحلم ان تعيش مع ابنهـا – ابن شريف ويعمل – يكمن وجودا فى كرامته واحترام القوانين . يأمل يحيى هذا الحلم ويمكنه أن يخمنه ويجسد صـوره . فكر فى نفسـه وعبقريته . اذا شكت يوما أنه سيبدأ فى ادخار النقود من أجـل دفنها . حاول ان يبلغها بذلك . لكن هل تلعنـه ؟ لم تمنحه هذا الامتياز يوما . لعنة أم ! لم يستطع يحيى أن يمنع نفسه من الضحك .

توقفت فجأة عن التطريز . علتهـا الدهشـة وبدت كأنمـا صدمها شىء :

ـ أراك تضحك يابنى !

ـ هل تريدين ان ابكى ؟

ـ ألست خجولا من سخريتك من حالتى ؟

ـ ابدا يا أمى ٠ لقد ضحكت من خاطرة جالت بى ٠

قالت بمرارة : لا استطيع أن افهم ٠ كيف يمكنك ان تضحك فى هذا البيت البائس ؟

لايمكن ابدا ان تغفر له سخريته من حالتها ٠ انه لا يأخذ الأمور بجدية ٠ أرادت أن تراه خجولا ٠ يعيش حياته فى ملل ٠ فالحال بائس ٠ وكيف يسخر منه ؟

لقد حان الوقت ليذهب ٠ بدأ الجو فى الاختناق ٠ غاص فى مقعده ٠ وانغمس أكثر فى الظلام ، ضحك ساخرا ٠ فحتى الآن لم يقبل على الشىء الصعب بعد ٠ قال بصوت أجهش :

ـ أمى !

فطالما انها لاتود أن تراه يضحك ٠ فعليه ان يبكى :

ـ ماذا تود أيضا ؟

ـ الا تعطينى خمسة قروش يا أمى ؟

اطلقت تنهيدة ٠ وقالت :

ـ أيضا ! متى ستفهم اننى فقيرة ؟

ـ أعرف يا أمى !

ـ يبدو انك لاتعرف ٠

ـ لا أعرف ٠ لقد طلبت منك كثيرا ٠

ـ أيها المجنون ٠ يا الهى ٠ أقول ان أباك كان رجلا شريفا للغاية !

هذا شىء مثير للرثاء ٠ لقد عرف يحيى هذه الحدوته ، وعليه ان يسمعها كاملة ٠ وأن يفاوض حتى النهاية :

ـ اتركى أبى فى حاله ٠ أريد هذه النقود ٠

ـ ليس معى سوى أجرة المنزل ٠ اذا أردت أن تأكل ٠ فهناك شوربة عدس ٠

يتناول هذا الحساء ٠ أبدا من الأفضل ان يموت جوعا ٠ عن تناول هذا الحساء الذى تطهوه أمه ٠ والذى يعد أحسن ما تقدمه ٠ تفوح منه الرائحة العفنة التى تنم عن حالهم ٠ لايمكنه ان يأكل أبدا ٠ يمكن ان يتحمل كل الاهانات ٠ الا العدس ٠ ثم ان الأكل لايهمه كثيرا ٠ قال :

ـ انه غير صالح للأكل

ـ ليس عندى فراخ ٠ للأسف كى أقدمها لك ٠

لست أبالى بالفراخ يا أمى ٠ كما اننى لست جوعانا ٠

تعرف أنه يتعاطى الحشيش ٠ لكنها لا يمكن ان تصدق ، فهى تفضل ان تناقش أشياء عبثية مثل هذه الشوربة التى تريده ان يلتهمها عنوة ٠ فيم تفكر ٠ تصورت انه يريد النقود كى يشترى حشيشا ٠ ذكره هذا بما حدث بعد الظهيرة ٠ أصابته الرعشة ٠ قابله شرطى فى الشارع ٠ وسلب منه قطعة حشيش كبيرة بادعاء تفتيشه ٠ لم يستطع الدفاع عن نفسه ٠ هؤلاء الشرطة الملاعين ٠ يأخذون كل هذا الحشيش ويغرقونه فى النهر ! غباء ٠ عليهم اعادة بيعه فى السوق وبسعر أعلى ٠

من الواضح انه بعيدا عن الحشيش والطعام فالانسان فى حاجة الى بعض المصروف . فوضعه كمتطفل وصعلوك لا يمنع يحبى ان يكون مسرفا . بل على العكس ربما ورث عن أبيه حب المصروف الكبير . يجب ان يدفع بسخاء للآخرين . وان يساعد من هم أفقر منه . جوهر على سبيل المثال يعرف ان جوهر صفر اليدين دائما . وانه لايطلب شيئا أبدا ، مسألة كرامة مع بعض الفرق . يشعر ان عليه ان يساعده فى وضعه الراهن . وان هذه هى الطريقة الوحيدة التى يخفى بها دمامته الخلقية والجسدية . الوجود الحقيقى الذى يشعر فيه بالنغمة الصحيحة . يعامل البشر كما هم . فليس جوهر مصلحا ولا داعية . وهذه الخصوصية التى عرفها عنه لم يجدها فى أحد . فاغلب الناس يميل الى اسداء النصائح . بالضبط مثل أمه . أو فى الواقع فان أمه تشبه أغلب الناس .

يخشى ان تسخر أمه منه ، لا . لم يكن شريرا معها . تدافع عنه بطريقتها وببعض المراعاة انها الأكثر قوة . ولاتوجد قوة فى الدنيا يمكن أن تزعزع من ايمانها بالامها . غارقة فى خزنها . لاتفهم أنه يمكن ان تضحك رغم كل التعقيدات الهائلة .

يعرف انه سوف يقنعها باعطائه نقود . تحاول ان تجعله قريبا . منها . تؤمن بالعدوى . وان كل هذا الحب والعاطفة الأسرية ليس لها من هدف سوى ان تجذبه الى متطلبات الفقر . يا للمرأة المسكينة . لاتعرف انها ولدت صعلوكا متفائلا .

يكفى هذا الآن . لقد منحها الوقت الكافى .

ظلت بلا حراك فترة طويلة . تحاول ان تتماسك . ستفقده يوما . هذا الولد العاق . لكنه الرباط الوحيد الذى يربطها

بالأحياء . لن تنجح يوما ان تجعله يمشى فى الطريق الصحيح . ينزلق دائما من أصابعها . ويصعب الامساك به . سقط بين براثن الشيطان . الشىء الوحيد الذى تحتفظ به له هو ضحكته . هذه الضجة الأشبه بسفينة وسط قربها . لاتستطيع ان تفهم هذا الاحساس أمام ما يبدو لها الكرامة الوحيدة فى العالم . وهو الامتثال للأحزان . تسكن فى هذا المكان الحقير منذ أمد طويل وهى تسمع ضحكاته أكثر رعبا من صرخة انسان ثورى . يمكن ان يتقبل الثورى . ولايمكن قبول السخرية .

لم تشك أبدا أنه لا جدوى من كل هذه التضحيات . وان النقود هى أقل ما يمكن ان تقدمه لقد حرمت نفسها لأجله . لم يبق أمامها سوى حياتها كى تمنحه اياها . لماذا لا يأخذ حياتها اذن ؟ واذا جاء يوما كى يقتلها فانها ستنتظره بكل ما تملك . قالت :

ــ اعتقد أنك ستقتلنى يوما .

ــ لا ، يا أمى . يالها من فكرة مأساوية ! فالحياة أسهل من هذا . اعطنى النقود وسوف أذهب ، أؤكد لك انه لا مأساة هناك . أين ترين المأساة ؟ انت الوحيدة التى تؤمنين ان الدنيا شىء جاد ، الدنيا مبهجة يا أمى . وعليك ان تخرجى وتتنزهى قليلا .

نظرت اليه غير مندهشة ، كأنها سمعت كلاما مجنونا اعتادت سماعه منذ أمد طويل . ماذا يفعل . يا الهى . أطلقت تنهيدة وقامت مترددة . كأنها تستند على عكاز خفى . غاصت فى ظلام الغرفة . رآها يحبى بصعوبة . عادت بعد لحظة . ووضعت قطعة معدنية فوق المائدة .

ــ خذ ، واشرب من دمى .

يا للمرأة المتزمتة . خسارة ان العالم لم يشهد مثـــل هذا المشهد التمثيلي . مشهد حقيقي يجمع بين طفل عاق وامه . يجعل هذه الدموع تتســاقط . ضحك يحيى وأمســك النقـود بين يديه ووضعها في جيبه . وقام ليخرج .

– سلام عليك يا امي .

قالت : اجلس لتاكل هناك حساء لذيذ .

– لست جوعانا الليلة . لكنني اعدك ان اعود مرة اخرى لأصحبك الى مطعم فاخـــر . ثم نذهب الى ناد ليلي . الا يعجبك الذهاب الى ناد ليلي وتشــاهدي الراقصـــات . سترين كم ان الحياة حلوة .

خرج من القبو . كانه غريق خارج من حفرة مليئة بالطين . تنفس هواء المساء بمتعة ، أخيرا تحرر من وقاره القذر ! فكل شيء يدور في هذه الغرفة مزيف تماما ويكسب الفرحة حزنا . يا الهي . لماذا تقتصر السعادة على الأغنيـاء وحدهم ؟ ذلك خطأ أساسي . فالسعادة موجودة حتى في السجن . لقد عرفها يحيى هناك أكثر من أي مكان آخر . رغم ان هذه الحقيقة البالغة البساطة أصبحت دافعا مريبا في عيني أمه ، انها لاترى فيه سوى الخسة والخمول . وتتحدى كل متاع الدنيا اليس هذا اهانة لذاتها ؟ . بالتاكيد توجد خلف هذه المتعة معـاناة حقيقية . لايحاول أن ينكرها . بـل انه بالغ الحساسية تجاهها . حتى اذا لم توظف نفسـها في احتواء كل هذه الشكليات من الأفكار الكئيبة . فسوف تخفق فيـه كل مشاعر الحنان ، وستمنعه ان يحبها ببساطة . وستضطره أن يدافع عن نفسه ضد أشباح الفقر التي تعرفه منذ أمد طويل .

انسل يحيى عبر الشوارع ، وهو يحس ان هذه الآلام تطارده

بمشاعر مسمومة ، كمن يريد أن يبعد عن نفسه كل المبالاة ، تحت اضواء المصابيح الخافتة ، يبدو ظله القصير الحاد ومشيته المتعجلة وكانها تصنع منه طيرا جارحا ضخما في هـذا الحي الذي يمثـل منطقة محايدة بين الأحياء الشعبية والأحياء الأفرنجيـــة . قليلا ما يمر بعض المارة . وكانهم يلوذون بالفرار . يتناثرون في الليل . مثل الأشخاص الذين يراهم في الكوابيس . ابطأ يحيى خطاه وهو يفكر في الاتجاه الذي عليه ان يسلكه . عليه ان يقوم بلفة كبيرة كي يصل الى حي الأزهر دون ان يجتاز الحي الأفرنجي . على كل فعليه الا يغامر بالذهاب الى تلك الشوارع الواسعة المكتظة بالناس . الخاوية تماما من أي حيـاة حقيقية . يكره هذه العمـارات الضخمة الباردة . التي تشبه المقابر الكبيرة . وهذه الواجهـــات المضاءة بطريقة تثير النفور . والتي تملأها تناقضات عديدة . ليست هناك واجهة واحدة ضرورية . فضلا انها سهلة الامداد . يجد نفسه دائما في مدينة غريبة تختلف عاداتها عن عادته . يلتفت الناس حول انفسهم عند أول كلمة أو بادرة . وتنظم الشرطة كل شيء . يجب ان يظل بعيدا عن هذا الثراء الفاحش . ضد من ؟ وضد ماذا ؟ فهو لايرى أي الأسباب تدفع الى الخوف . لأنهم يغلقون انفسهم في ثرائهم ، حتى لا يفكر احد في سرقتهم .

سلك الطريق يمينا ، وهو يستكمل مسيرته تحت أضـــواء المصابيح .

يجب أن تقول – وهذه صفات نادرة في الشعراء – ان يحيى لايتصرف كأحد العباقرة ولكنه يرى أن العبقري يفتقد البهجة ! وان عملية سوء الأخلاق العميقة – التي تثقل فوق أعظم المشاعر الانسانية – تبدو له أسوأ جريمة . فهو يحترم الكثير من الناس ليسوا شعراء ولا مفكرين ، ولا وزراء ، ولكنهم ببساطة يعيشون

في سعادة ابدية . فالقيمة الحقيقية عند يحيى تقاس بكمية السعادة التي يحصل عليها في كل وجود . كيف يمكن أن يكون المرء ذكيا وحزينا ؟ حتى أمام يدى الجلاد لا يمكن ليحيى سوى أن يكون مرحا . تبدو كل المواقف نفاقا والتصاقا بكرامة ضائعة . وهكذا تخرج أشعاره معبرة عن أحاسيس الشعب الذى يعيش بينه . لغة تتوارد فيها الأمزجة عالية رغم المآسى . فشهرته في المدينة أشبه بلاعب قرد أو قراقوز . يعتبر أن مهنته ليست لتسلية الجماهير . وانما للتعبير عنها . فهو لايجد في نفسه أى تشابه مع رجل الأدب من طرازه والذى يتمتع بنفس شهرته الخالدة . فهو لا يبحث عن المجد ولا الانجاب . لكن أشعار يحيى ممزوجة بالكلمات العارية . يمكن أن يفهمها الصغير والكبير . يحسونها بغريزة لا تخيب عن الحياة التي يعيشونها .

ياله من شارع طويل ملىء بالحوانيت المغلقة . والمصابيح العديدة كأنها في مسيرة جنائزية . أسرع الخطى . مرول ناحية قهوة المراباكي يتناول الشاى بالنعناع في هذا الجو البديع . فجأة أحس بنوع من التنوير . فتوقف . الساعة ! ترى كم الساعة الآن ؟ هل لديه الوقت لرؤية الفتاة ؟ كيف نساها ؟ ارتكبه جنون فأخذ يجرى .

لم يجد وسيلة يمكنه بها ان يعرف الوقت . في هذا الشارع الخاوى . لا يوجد أحد أمامه . كاد يحيى أن يشعر باليأس . الا أنه رأى رجلا يخرج من باب عربة حنطور . يبدو رجلا أنيقا . يرتدى ملابسه على الطراز الأوربى . وقد حشر نفسه في معطف اسود ثقيل . ويبدو أنه من الذين يحملون الساعات .

تباطىء يحيى واقترب من الرجل :

ـ كم الساعة الآن . يا سعادة البك ؟

اخرج الرجل من جيبه ساعة كبيرة من الفضة . وقال :

ـ الساعة الا ربعا . في اى ساعة ستقل القطار ؟

قال يحيى : لا يوجد قطار . فلدى موعد مع فتاتى .

نظر الرجل الى يحيى . وهز راسه مرات عديدة وهو يقول :

ـ ممكن يا عزيزى !

اكد يحيى : ممكن جدا .

ودون ان يشكر الرجل استكمل طريقه .

يا للرجل القذر ! انه يشك في انه على موعد مع فتاته . ولكن هذه هي الحقيقة تقريبا .

سوف يصل في الموعد . فهى لاتعود قط قبل السابعة . وقف على مسافة خطوات من المنزل . تصلب فوق الرصيف ، في ركن مظلم بين مصباحين . في هذا الشارع الاقل ازدحاما . لايزال به بعض الحوانيت المفتوحة ، يتحرك شخصان أو ثلاثة حاملين أكياسهم المليئة بالفاكهة . يخرج من المحلات المضاءة بعض الدخان المنبعث من اللحوم المشوية وقريبا منها يوجد مقهى ، استطاع يحيى أن يسمع أصوات دوائر الزد . وأصوات اللاعبين . انتظر ـ وقد ملأه التوتر ـ فتاته وهو يصوب عينيه تجاه المكان الذى ستجىء منه .

كان لقاؤهما الأول مجرد مصادفة بسيطة . في ذلك المساء . وقع يحيى في غمار المخدرات وهو يسلك نفس الطريق . عندما رآها تسير تحت نور المصابيح ذات طلعة بهية . تقابلت الأعين . أعتقد انه يقرأ في عينيها وعدا واحساسا لم يشعر به من قبل .

عينـان مليئتـان بالذكاء والغموض . وبدلا من ان يطلق تعليقا سخيفا . بادلها نفس النظرة . انها النظرة الوحيدة التى لم يشعر فيها بالعطف او السخرية . ولكن بشعور غريزى أشبه بالرعب . لعلها ابنة موظف . ربما فى السادسة عشر تتلقى دروس بيانو . عرف يحيى ذلك من كراسات الموسيقى التى تحملها تحت ذراعيها . تتهادل كأنها اميرة تزور الاحياء الشعبية . انها فعلا كراسـات موسيقى . تبدو شيئا غريبا على هذا الحى . ففى مثل هذا الحى لا يتلقى أحد دروس البيانو الا فى النادر . دهش يحيى حين راى بعض أطفال الحى يطاردونها بتعليقاتهم ، انه طريقها بالتاكيد . أحس بالعرق يتصبب على جبينه . فى نفس المساء قرر أن يكتب قصيدة على شرفها ، وان يعطيها اياها بأسلوب رقيق وفريد .

تصرف يحيى دوما بنفس الرقة . فهو عندما يراهـا قادمة يسير فى اتجاهها كى يبدو اللقاء مصادفة ولكن ، الا تفهم ذلك ؟ فى آخر مرة القت له بابتسامة منتظرة . كأنها فهمت مشاعره . اطمأن انه أكثر اقترابا منها . لم يعد يحيى يفكر ثانية فى هذا الأمر . « لاتبدى أى اشمئزاز لرؤيتى . يالها من فتاة شجاعة . او ربما هى قصيرة النظر ؟ » وزيادة فى الحرص تعمد ان يكون اللقـاء تحت المصباح حيث الضوء قوى . حتى لايخدعها . لكنها أعجبت بدمامته حتى لا تأتى فيما بعد وتروى له انها لم تره جيدا في العتمة الشديدة . لذا فان يحيى يتعمد أن يجعلها تراه فى كل مرة . فيبدو الوجه واضحا تحت المصباح . لعلها تفكر انه يتصور نفسه جميلا وهو يكشف عن نفسه وسط الضوء .

لقد تأخرت الفتاة . ربما عادت الى المنزل . أو أنه لا يوجـد درس بيانو اليوم ؟ بدأ يحيى يحس بالملل من هذا الانتظار الطويل . قبع ساكنا فى الظلام . وقد سلم نفسه للبرد ولنظرات المارة التى

تنظر اليه ـ ربما ـ كمن يتحين الفرصة . انه يخاطر بهذه الوقفة . توقفت أصوات الدوائر فى المقهى وارتفع خليط أصوات لم يستطع ان يحدد كنهها . مر بائع بطاطا واخذ ينادى ممتدحا بضـاعته ، يستخدم نفس العبارات المثيرة وكأنه يغازل بها امرأة مبتذلة . مر بعض الأشخاص قريبا من يحيى . فوقفوا لحظة . نظروا اليه ثم استكملوا طريقهم وهم يهزون الرؤوس .

رآها قادمة من بعيد فاطلق تنهيدة ارتيـاح . فيمكن لهذه الوقفة فى حى متوسط ان تنتهى الى مالا يحمدعقباه ، أحس بالسعادة لأنها انتهت . تردد لحظة ، ثم بدأ فى المشى ، واضعا فى حسبانه أن يبـدو اللقـاء مصادفة تحت المصباح . واعيا أن يبرز دمامته . فهو لايؤمن بالاغراء . ومع ذلك تقدم وقد تورد وجهه كالعشـاق محاولا ابراز كل دمامته كى يعمل على جذب اعجاب الفتاة .

وأسـفاه ! لقد نسى القصيدة التى نظمها . أين القصيدة ؟ فتش فى جيوبه بسرعة . أخرج بعض الأوراق ، أعتقد انه وجدها . تساءل : ربما ان هذا افضل ، ياخسـارة فليس لديه وقت كى يتأكد منها . هبت عليه نسائمها ، . كأنها دخـان الحشيش . أكثر قربا ، وواقعية . ولكنه بعيد أيضا .

دخلت فى دائرة الضوء المنبعث من المصباح . بخطى رشيقة ، رفعت راسها وهى تنظر نحو الأمام ، ساد الشارع زلزال جاب الحى كله . تضع على رأسها غطاء رأس من القطيفة الزرقاء . وترتدى معطفا من نفس اللون . وقد لفت على وسـطها حزاما من الجلد الأسـود .

زادت هذه الأناقة الأوربية من مشيتها سحرا . تضم كراسات الموسيقى تحت ذراعيها وقد كستها بمظهر التلميذة المجتهدة . ينم كل شىء فيها عن كبرياء لاحدود له . وازدراء تام له .

سارت على مقربة من يحيى دون ان تغير من مسلكها . وتصنعت التجاهل التام تجاه يحيى الذى وقف تحت المصباح ، وقد كشف وجهه فى الضوء . اكتست شفتاه الغليظتان بابتسامة . لكن هذه الحركة لم يبد لها أى معنى عند الفتاة التى لم تعره انتباها ..

شعر يحيى بخيبة أمل . سار بضع خطوات ، ثم استدار وأسرع خلفها . أحس انه على استعداد لاقتراف أى جرم لو استدعى الأمر . كيف جرؤت ان تتجاهله .

– لقد نسيت هذا يا آنسة .

وقفت مبغوتة . وقد بدا عليها الخوف .. فالموقف مربك بالنسبة لها . لم تكن تتصور ان لديه الشجاعة ليفعل هذا . بسطت يدها بتلقائية . فمد لها يحيى بالورقة المكتوب فيها القصيدة وابتعد على عجل دون ان يلتفت اليها .

مر الأمر دون خطورة ، نجحت طريقته تماما . كيف ستتصرف بعد ان تقرأ القصيدة ؟ احس بسعادة عميقة وهو يفكر كيف سيكون لقاؤه القادم بالفتاة .

(٤)

دخل نور الدين ضابط الشرطة قاعة الانتظار واغلق باب الغرفة خلفه حيث يفحص الطبيب الشرعى جثة العاهرة القتيلة . ظل ساكنا برهة . وقد امتلأت نظراته الثاقبة بالثقة . تامل الغرفة بدقة شديدة . وكأنه يبحث عن شيء يتعلق بالقاتل . هذا جزء من الروتين . فالقاتل يتواجد فى هذه الغرفة بالتأكيد . ارتعد الحاضرون لهذه النظرات الباردة ، ولمدة ثوان ساد صمت رهيب . الآن كل البنات فى المنزل وأيضا ثلاثة زبائن اوقعتهم ظروفهم السيئة فى هذا الموقف . لايوجد أدنى سبب للشك فيهم . يقفون بجوار الباب كالعادة يحرسهم أحد رجال الشرطة كرمائن . منذ أن عرفوا ان لا شيئا يمسهم ويكررون ان وراءهم أعمالهم وعليهم الذهاب . لكن شكواهم ضاعت سدى الريح مع هذا الضابط المتجهم الوجه الذى يقف بجوار باب المنزل . يتكلمون الآن فيما بينهم عن وضعهم الاجتماعى الحساس . ويرددون ان هذا الخطر كفيل باحداث فضيحة عالمية . قال أحدهم :

ـ سوف أبلغ صديقى الوزير .

صمت الآخران ، انهما على عجالة ، ولايجدان شيئا يبلغان به الوزير . فكرا برهة فى علاقتهما بالملك ، لكن هذا الأمر بدا لهما أقل أهمية للاتصال باحدى الشخصيات المرموقة .

الموقف البالغ الرثاء فعلا كان هو موقف الست أمينة . جلست على طرف الأريكة وقد أسندت يدها على خدها . فبدت أشبه باحدى الشهيرات . تبكى بصوت أجش وهى تطلق تنهيدة من أعماقهــا ليكون الله شاهدها .

ـ كان يوما أسود ! ماذا جنيت ياربى ؟

بعد أن ألقى نور الدين العديد من النظرات حوله ـ وهذا من دواعى الروتين الغبى ـ سار نحوها بخطى ثابتة ، بدا متعبا . وعلى استعداد لحبس كل الموجودين . قال بلهجة حادة :

ـ كفى عن هذا التصنع يا امرأة .

سكتت الست أمينة فجأة . مبتلعة تنهيداتها وانكمشت داخل نفسها . فهى ليست امرأة غبية . ولايمكنهــا ان تتجاوز قوة القانون . لقد قدرت جسامة الموقف . ففى هذه المرة تعرف ان بيتها سيغلق . لأن حدوث جريمة فيه يعنى نهايتها .

أكمل الضابط : اذن . ماذا تعرفين عن هذه الحكاية ؟

ـ ماذا أقول لسعادتك . بشرفى . أنا لا أعرف شــــيئا خرجت بعد الظهر مع الفتيات لنقوم بعمل مشتروات . وعندما عدت ذهبت الى غرفة ارنبه كى أطلب اليها أن تستعد فرأيتهــا ممدودة فوق السرير . أطلقت صرخة فجاءت بقية البنات ليرين ما حدث ليحفظ الله سعادة البك من هول ما رأينا . لقد تسربت منى دمائى .

ـ وهذا الذى يثيرنى فيك يا امرأة . اذن فقد تركت البيت وتجولت فى المدينة . مستحيل ، تصورتك ستقولين الحقيقة .

ـ أنه يوم النزهة بالنسبة للبنات يجب أن يتنسمن الهواء .

ـ ولماذا لم تذهب أرنبة معكن ؟

ـ لا أعرف ياسعادة البك . انها تجد راحة فى ذلك . لأنها مستجدة . وأنا لا أحب لأحد أن يعارضنى . المهم بالنسبة لى أنها تعمل جيدا .

ـ ومتى عدتن ؟

ـ حوالى الساعة السادسة .

ـ الم يكن أحد فى المنزل مع أرنبة ؟

ـ أبدا يا سعادة البك . لم يكن هناك أحد .

ربما زبون .

ـ انظر بنفسك يا ســـــعادة البك . فكل زبائنى محترمين ولا يستطيعون قتل ذبابة .

ـ لكنك تستطيعين قتل ذبابة ! أيها الداعرة . ولايدهشنى ان تكونى القاتلة .

وازاء هذا الاتهام المباشر ، رفعت الست أمينة ذراعيها نحو السماء . وارادت أن تعود الى البكاء . لكن الضابط أوقفها :

ـ أخبرينى هل كنت تعرفين انها تخفى نقودا فى غرفتها ؟

ـ لم يكن معها مال . فانا أحتفظ لها بكل مالها .

ـ هل أنت واثقة ؟

ـ طبعا يا سعادة البك !

ـ سأتولى أمرك فيما بعد . وأنصحك أن تلزمي الهدوء .

دعك الضابط يديه وبدا متعبا للغاية . فمنذ ان بدا التحقيق وهو يشعر بالضيق مما يحدث . فالقتل لم يتم بدافع السرقة . والجريمة ليست بدافع الجنس . يقول تقرير الطبيب الشرعي ان جسد العاهرة ليس به اى علامات أو بقع جافة . لقد خنقت الفتاة بطريقة تقليدية . أمر غريب . وجد نور الدين نفسه ـ لأول مرة ـ فى موقف لايحسد عليه : أن يحل لغز جريمة بلا دافع . فجريمة كهذه تخفى فى طياتها أسباب غريبة ، أسباب خفية ذكية لايمكن لشخص واحد ـ الا اذا كان ذا ثقافة أوربية ـ ان يفكر فى تنفيذ مثل هذه الجريمة . انهــا من نوع الجرائم التى تنشر فى كتب الغرب . جالت عينا الضابط القلقة ـ من جـديد ـ فى المكان . بحثا عن شخص بالغ الذكاء يمكن ان يقترف مثل هذه الجريمة . ولكن اى من هؤلاء لا يقدم اجابة شافية ، فلا يمـكن لأى منهم أن يكون هذا القاتل الخيالى . أحس نور الدين أنه وحده مع الجريمة . اقترب من مقعد قريب من المائدة وجلس عاقدا ساقيه . ثم أشعل سـيجارة .

أنه عبد للروتين . عليه ان يسأل كل هؤلاء الناس . وهو يعرف الرد مسبقا ماذا يمكن أن يفعل بكل هؤلاء الذين يرتجفون ويخافون ضياع سمعتهم . أخفى نور الدين اشمئزازه ، وشعر ان الملل يتسرب الى روحه وترك ما يحدث حوله . وتذكـر مشكلته الخاصة . لقد استدعوه كى يتولى هذه المهمة فى لحظة حساسة . يشعر أن عدم لقــائه بسمير يعد كارثة . لا يكف عن التفكير فيه . يعرف مدى حساســية الشاب . العذر أقبح كى يغفر له عــدم حضوره . سوف يضرب له موعد آخر . ترى هل يوافق ان يلتقيا

ثانية ؟ ينغص هذا السؤال على كل أنشطته . فلا يشعر بأى راحة . لكن عليه الا يكون شــاردا وهو يحقق فى جريمــة مجهــولة الدافع كهذه .

ورغـم مايبـــدو على الضابط نور الدين من صرامة الا انه معجب مشدوه بالجبال . هذه المهنة التى تجبره ان يكون وسـط حضيض المجتمع . قد غدت شيئا بشعا بالنسبة له . فهو يجد نفسه دائما غارقا فى أوحال حوارى الأحيـــاء الشعبية ، برفقـة المجرمين والمتشردين وهذا شىء يهدد روحه الآمنة ويجعله فى حال يرثى له . رغم أنه يؤمن برسالة هذه المهنة ويكن فى أعماقه ايمانا بدور رجل الشرطة . ولكنه يحب ان يتولى الجرائم النظيفة التى يرتكبها الأذكيــاء من المجرمين . لكنه يقع دائمــا مع الأفاقين والأقل تربية .

الا يشعر أى انســـان بالمرارة وهو يرى مثاليــاته موضع سخرية ؟ يالقسوة القدر ! أحس نور الدين بالاختناق ، فك الزرار العلوى ليخلص عنقه من هذه الياقة القاتلة . شعر بالراحة وهو يفعل هذا الأمر الغريب . أحس أن عليه أن يجـرى الاستجواب رغما عنه . بالنسبة للبنات فلا يمسهن أى جرم . ومن غير المجـد أن يستجوبهن . لسن ســوى حيوانات غبية . وهن كفيلات أن يزيدن من تعقيد ماموريته . ليس أمامه سوى الزبائن الثلاثة الذين يخرق التساؤل عيونهم . وكاجراء روتينى عادى أجـرى معهـم استجوابا عن هويتهم وسيطلق سرحهم . فالقاتل ليس من بينهم بالتأكيد . اقتنع نور الدين شيئا فشيئا ـ ولعل هذا ما يوده فعلا ـ أن القاتل رجل آخر . طليعى الفكر وفوضوى . ومثل هذه الملابسات تعطى لماموريته حيوية .

قال أحد الزبائن الثلاثة الذى يتباهى بصداقتـــه للوزير صارخا : لايمكنك أن تفعل هذا بى ! الا تعرف من انا ؟

القى عليه نور الدين نظرة اشمئزاز . أنه يعرف هذا الطراز من البشر . ويكفيه مالديه من أمثاله . امامه الآن مهمة عليـه أن ينتهى منها . فالمهمة الحقيقة لن تبـدأ الا غدا اذا حالفه الحظ سيقابل سمير قبل أن يحل الليل . عمقت هذه الفكرة بثقلها فوق آلامه . ظل مكتئبا . مكفهر الوجه . يبدو صارما .

فتح باب الغرفة التى يرقد فيها جســد العاهرة القتيلة . خرج منه رجل فى الخمسين من العمر شاحب الوجه طويل الأنف ، يرتدى طربوشا مجعدا يملاه التراب . انه الباشكاتب :

ـ تحت أمرك ياسعادة البك .

قال الضابط : اجلس هنا .

جلس الباشـكاتب . واخــرج بعض الأوراق من حقيبتـه ووضعها فوق المائدة . ثم أمسك قلم كوبيـا مبرى من الطرفين . وقد تركت بعض البقع الزرقاء على شفتيه . سأل :

ـ بمن نبدأ ؟

اجــاب نور الدين : سننتظر قليلا . هل انتهى الطبيب الشرعى مع الجثة ؟

ـ أمامه وقت قصير .

ـ أرجو ذلك .

بعد هذا الحوار القصير . استعاد نور الدين وجهه الصارم . نفث دخان سيجارته وهو يتطلع نحو السقف . ويبـدو كأنه قد

قرر الهروب من عبوديته . ركز الجميع أنظارهم عليه . لقد وضعهم مثل هذا الموقف المتضارب الملىء بالتهديد فى وضع تحد . فهـم لايعرفون ما سيقولونه ولا ما يضمره لهم . جلست الفتيات فوق الأريكة متكومات فى حمـــاية الست امينة . وقد تملكهن الخوف فيما يدور . ولكنهن يشعرن بالسعادة لحضورهن تحقيق فى جريمة تخصهن . فيملأهن الفضول . أما نايلة فهى الوحيدة التى أثرت فيها المأساة . فقد جعلها المرض أكثر حشاشــــة وحساسية من زميلاتها . فهى تقدح خيالها وتضع نفسها مكان القتيلة . تمنت أن تكون هى . تريد أن تموت مع هذا المرض الميئوس من الشفاء منه . من الأفضل بالنسبة لها ان تقتل بدلا من ان تعيش أشبه بهيكل عظمى . السيرة موت بطىء لايرحم . غلبتهــا أفكارها وقد علاها شحوب واضح . بين لحظة وأخرى يهزها سعال قوى . حاولت الفتاة الجالســة قريبــة منهــا ـ وتدعى سليمة ـ أن تهدأها . أما عقيلة أصغر بنات الماخور فقد أبعدت وساوسها ولم تفكر سوى فى العمل فرغم وجود رجال الشرطة وجثة زميلتها الممددة فى الغرفة المجاورة . الا أنها لم تكف عن الغمز بعينيهــا للزبائن الثــلاثة الموضوعين تحت الحراسة . لكنهم كانوا يفكرون فى اشياء أخرى . فقد ذكرتهم غمزات عقيلة وابتسامتها بواقعــة ســوداء حــاولوا نسيانها . فمن الآن وصاعدا سيفكرون الف مرة قبل أن يدخلوا ماخورا آخر .

أنهى الطبيب الشرعى مهمته . دخل قاعة الانتظار . وقد علا وجهه اكتئاب وبدت عيناه حمراوين كأنهما تشعا نيرانـا . وكأنه سكين . انه شاب أيضا . تأثر كثيرا لرؤية جثة أرنبـة العارية . سأل بصوت مخنوق أين يمكنه أن يغسل يديه . قالت الست أمينة :

– فى آخر الطرقة . اره الطريق يا زايد .

اشار زايد – الخادم – الذى كان يجلس فى أحـــد الأركان للطبيب بكل وقار . واختفى معه فى الممر .

اثار هذا الأمر انتباه الضابط فقال للست امينة :

– اخبرينى يا امرأة . هل زايد فؤادك ؟

صاحت الست أمينة : يالها من اهانة يا سيدى . انه يتولى أعمالى . ويقوم بخدمة البنات .

– أين كان بعد الظهيرة ؟

– كيف لى أن اعرف . انه لا يأتى الا فى المساء . جاء بعد أن عدنا . ولد طيب يعمل فى خدمتى منذ سنوات وأنا اثق به .

سمعت الست امينة أن تجعله يشعر ان القاتل غريب عن منزلها . تعرف أنه لم يبق أمامه سوى ان يهاجم تجارتها .

– سوف أتولاه فيما بعد . اخبريه الا يغادر المكان . وأنت مسئولة عن هذا .

تنهدت الست امينة وقالت : ليحفظنـا الله . هل أعد لك قهوة ياسعادة البك ؟

– لسنا هنــا لشرب القهوة يا امرأة ! يبـــدو أنك لاتقدرين جسامة ما حدث فى بيتك . دعينى أخبرك ان نهايتك اقتربت .

قالت امينة متوسلة : ارحمنى يا سعادة البك ؟ ماذا أفعل . اقتلنى اذن !

– كفاك وهذه الملهاة ! وأكرر عليك لآخر مرة . لست هنا لأشرب قهوة ولا لأسمع هذه الأصوات المزعجة .

ود ان يخبرها أنه هنا لمعرفة القاتل . ولكن بدا هذا أمرا ساذجا فلم يقله لقد تصرف نور الدين كطفل صغير غيور على أسراره فعليه الا يجعل أحدا يكتشف رأيه فى أن القاتل ليس فى المنزل . وانه ليس من أبناء الأحياء الشعبية . تنخر فى رأسه فكرة ان القاتل غريب عن هؤلاء « الهمج » رغم أنه يدرك أن يقينه مبنى على تحليل نفسى ومصادفة . أحس أنه ينزلق فوق منحدر خطير لايعـرف أين ســيأخذه . عليه الا يتبع الروتين التقليدى . عليه القبض على القاتل . لكن كيف ؟ لو سرق شيئا لاقتفى أثره . ولكن هذا القاتل اللعين لم يسرق شيئا . قتل واختفى . ترى ما السبب ؟ ربما بدافع الانتقام ! عليه أن يعرف شـــيئا عن حياة القتيلة . هذه العاهرة الصغيرة الساحرة الجمال ، عليه أن يجـــد أثرا لبعض الرجال الذين يعرفونهـــا . وعمـــا اذا كان لها عشيق . لم يطلق نور الدين خيالاته كثيرا . فهاهو فى مهمة داخل مجتمع متمرد . اعتاد العنف ، ملأته التجربة . ويتصرف ببرود . ورغم هذا عليه أن يتعرف على قاتل العاهرة .

كيف يمكن أن يخرج نفسه من هذه المحنة ؟ فقتالة المهـــام المماثلة تجعله يشعر دائما بالوحدنية ، والاحباط . وقد يكون فى نهاية الأمر ظالما ومصابا بالمرارة . طالما أنه فى خدمة القـــانون . عليه ان يجعل القانون مهابا يعاقب المذنب . للأسف فان احساسه بهذه القوة بدأ ينخر فيه . وقد يدفعه ان يصبح اقل ايمانا بالسبب الذى يعمل من أجله . وهذا أمر جسيم .

جاهد أن يغلب يأسه . واستعد لبدء التحقيق .

فى هذه اللحظة طرق الباب بشـــدة . ران صمت طويل . اشار نور الدين للشرطى ان يفتح الباب .

عبر الكردى الممر بخطى مرحة . وقد اكتسى وجهه بابتسامة تعبر عن السعادة لكنه توقف كأنما أخطأ المكان . اتسعت حدقتاه من الدهشة وهو يرى هذا الجمع الذى امامه . كف عن الابتسام . ود أن يقول شيئا . ربما يعتذر . لكن الشرطى لم يمهله الفرصة للكلام . أمسكه من ذراعه . ودفعه أمام الضابط قائلا :

ـ زبون جديد . ياسعادة البك .

قال الضابط موجها كلامه للست أمينة : أرى منزلك عامر !

أيقظت سخريته الشجون . فمنزلها عامر . وليست فى حاجة ان تؤكد له ذلك . وهى الآن معرضة ان تفقد كل هذا نتيجة لجريمة ارتكبها قاتل داعر . ومن جديد بدأت تبكى :

ـ لماذا تلاحقنى المصائب . أنا امرأة غلبانة .

أمرها نور الدين : اسكتى والا أمرت بحبسك : لمن هذا الشاب .

قال الكردى : أنا .

انها الكلمة الوحيدة التى تمكن من النطق بها . لم يفهم حتى الآن اى مصيدة وقع فيها . فوجوده فى مثل هذا المكان أشبه بحلم . دعابة سخيفة . دعك عينيه كى يرى جيدا ماذا يفعل هذا الضابط هنا ؟ بدأ يكتشف الأمور . انها « كبسة » .. كاد أن يضحك قال نور الدين :

ـ أجل . أنت .

تأكد الكردى أن الأمر جسيم . تمالك وعيه ، واختفت الابتسامة . اكتست شفتاه بابتسامة بلهاء ساخرة مليئة بالاهانة .

نظر اليه الضابط بحدة . سوف يوسع هذا الوافد الجديد من دائرة التحقيق . ونور الدين لايريد شيئا من هذا القبيل . لاحظ أن هذا أول شخص يستحق الاحترام . يختلط بهذا الوسط الغريب . فكر ان يقبض عليه . سأله الكردى :

ـ ماذا حدث ؟

ـ سأشرح لك كل شىء . اجلس وكن هادئا .

هز الكردى كتفيه . وعدل طربوشه ونظر ناحية الاريكة . تلفتت الفتيات حول الست أمينة وقد غلفهن الصمت . عندما رأى نايلة بوجهها الشاحب الذى تملأه الدموع أسرع نحوها . رأى فى نفسه رجل الحق الذى عليه ان ينقذها من قبضة الشرطة .

ـ افسحوا لى مكانا .

افسحت الفتيات له مكانا . جلس الكردى قريبا من نايلة . أمسك يدها وضمها اليه . لكن هذا الموقف المؤثر لم يسكن الراحة فى الفتاة . بل ان حضور حبيبها أثقل عليها أحزانها . فهى تعتز بكرامتها . تعى تماما أن الكردى يمكنه ان يخلصها . تتساءل أحيانا هل هى صادقة نحوه . فكلما أخبرها عن رغبته فى ان تترك هذه الحياة تتأزم علاقتهما . سأل الكردى :

ـ قلن لى يابنات . على شرف من هذه الحملة ؟

قالت سليمة : ليست حملة . لكن أرنبة قتلت .

ـ قتلت ! كيف ، وأين ؟

ـ وجدت بعد الظهر مخنوقة فى سريرها .

جلس الكردى مذهولا بعد أن سمع عن الجريمة . ثم تنبهت

مشاعره • وأدرك جسامة الأمر • تأمل نايلة ولمسها كأنما يؤكد لها وجوده وشعر ان قلبه تملأه الشفقة •

وربما كانت هي •• ملأته هذه الفكرة بالألم فجاهد دموعه • لكن هذا لم يدم طويـلا • نظر الى الضابط والمحضر والشرطيين • انهم يمثلون العدالة • ملأ الفضـول رغبته • ويفكر أن الأمر قد لايتعدى التسلية •

ـ هل قبضوا على القاتل ؟

ردت نايلة : لا

قال الكردى : يالها من قصة مزعجة • فقد اعتقدت انها أنت •

ـ ليتها أنا • ساعتها لن يبكى أحد على •

ـ لاتقولى هذا الكلام • لن أتركك وحدك أبدا ياحبيبتى • سأكون معك بدءا من اليوم •

ـ يا الهى • لاتقل هذا الكلام • ووظيفتك ؟

ـ الوظيفة • سأطوح بها الى الشيطان • لقد وجدت وسيلة أخرى لكسب الرزق • سأحدثك عنها فيما بعد •

ـ خرج الطبيب الشرعى ، بدا أقل تأثرا • وكأنه وقع تحت تأثير مخدر • سأله الضابط :

ـ الا من جديد ؟

قال الطبيب : الآن لايوجد • غدا سأرسـل لك تقريرا بعد التشريح • الآن سوف أذهب • سلام عليكم •

قالت الست أمينة : الا يود السيد الطبيب أن يتناول كوب شاى • لايمكن أن تذهب هكذا • بالله عليك شرفنا •

رد الطبيب الشرعى : شـكرا جزيلا • فأنا على عجالة من أمرى • فى مرة قادمة •

انفجر الضابط قائلا : قولى يا امرأة • متى ستفهمين أننا لسنا فى زيارة ماخورك • اخبرتك ان تسكتى •

ـ فهمت ياسعادة البك • أنا لا أفعل سوى الواجب • أريد أن أكون ودودة •

قال الكاتب : سوف تبدأ الاستجواب •

ألقى نور الدين عليه نظرة حادة لم يفهمها • أى استجواب ؟ لقد نسى تماما هذه الملهاة السخيفة • ومع هذا عليه أن يقوم بها • فالروتين يضطره الى ذلك • وهذا الباشـكاتب الذى تعلوه الأتربة يسبب له وجعا فى رأسه • تمنى نور الدين ان يكون معه باشكاتب شاب • فمثل هذا الرجل العجوز لايمكن للعدالة ان تأخذ مجراها •

أشار الى أحد الزبائن ان يقترب • انه ذلك الذى يدعى أنه صديق الوزير • قام ومشى تجـاه الضابط بخطى متثاقلة وهو يزمجر بكلمات غير مفهومة • يبـدو بليد الذهن • يرتدى بدلة متسخة • وقد تجعد طربوشه القذر • وقف أمام الضابط منفوشا وصـاح :

ـ لايمكنك أن تفعل هذا • أنت لاتعرف من أنا •

قال نور الدين بهدوء : اسكت •

ـ قلت لك الا تعرف من أنا ؟

ـ وأنا قلت لك اسكت • رد فقط عندما اسألك •

ـ اسكت ، أبدا • سوف تندم عندما تعرف من أنا •

دق على صدره كأنه يشير الى هويته .

سأله نور الدين : حسنا . قل لى من انت ؟

تنهد الرجل بعمق وقال بصوت يملأه الفخر :

ـ أنا محصـــل .

أثنـــاء هذا كان الكردى يتطلع الى ما يحدث دون ان يتنبه ان هذا يمكن ان يحدث له . يرفض ان يفهم ما يحدث أمامه ويتردد فى ان يضحك . لاحت فجأة أمام عينيه سـخافة الموقف فانفجر ضاحكا .

توقف صديق الوزير . بدا خائفا كأنما ضحك الكردى يمس نبل أخلاقه . وضعته هذه الاهانة الجديدة فى موقف يرثى له . نظر الى الكردى باحتقار . ماذا يضحكه . هل لأنه محصل ؟

أما الكردى نفسه فلم يفهم علام يضحك . بدا الأمر غريبــا للحاضرين . فهو يضحك فى منزل ارتكبت فيه جريمـــة قتل . ووسط تحقيقات الشرطة . ولا يمكن ان يكون هذا سوى ضرب من الجنون . صعقت نايلة لسلوك حبيبها المهين . ولم تجد توسـلاتها فى أن يكف عن الضحك . فقد بدا أن الشاب غير قادر على السيطرة على الرعشـــة التى تهزه من أعماقه وفى كل مرة ينظر الى الرجل يعاوده الضحك مرة أخرى .

أحس المحصل بالاهانة وانتظر ان ينتهى الضحك كى يتكلم . لم يفهم شيئا . أما نور الدين فهو الوحيد الذى أراد ان يضحك وسط هذا المشهد المهيب . لكنه لم يود أن يحول الأمر الى مزاح . قال :

ـ كف عن الضحك . فلسنا هنا فى ماخور .

قال الكردى وهو يضحك أكثر : فعلا ياسعادة البك . لسنا فى ماخور .

أحس نـور الدين أنه يتهم الجميع . وانه اقترف جرما . فسكت وهو يشتعل غضبا . انهم فعلا فى ماخور . على كل فسوف ينال من هذا الشاب عندما يحين دوره فى الاستجواب .

فى هذه الاثناء . استعاد المحصل جأشه . فقال :

ـ هل تعرف من أكون الآن ؟

ـ محصل . أين ؟

صاح المحصل وهو يشهد الجميع على وجوده : أيها الناس الطيبون . أنا أقوم بالتحصيل فى كل مكان . ألم تر محصـــلا من قبل ؟

قال نور الدين : مثلك . لا .

ـ سيدى الضابط . أنا أحتج على هذه الاهانة . وسوف أشكو للوزير .

أحس نور الدين أن عليه أن يتصرف بسرعة . والا لن يصل لشىء مع هذا الملعون . وسيكون جهـاز السلطة العوبة . وسيغدو الاستجواب ملهاة ساخرة لايمكنه ان يترك نفســه يخاطر . صفع المحصل على وجهه مرتين . اسـتدار هذا الصغير واطلق صرخة مكتومة . وقد غطى وجهه بيديه . لكن الأمر جاء متأخرا . جلس نور الدين وهو ينظر اليه باشـــمئزاز . كل هذا دام كســورا من الثانية .

ـ اجلس . والآن فامامك فعلا ما تشكو منه الى الوزير .

عاد الرجل الى مكانه صامتا . ســـار منحنيا كأنما اصابته الشيخوخة فجأة . وبدا كأنه أفرغ كل كرامته خلفه .

واستكمل التحقيق بشكل طبيعي . تصرف الزبونان الآخران بحذر واضـــح . فذكـرا اسميهما ووظيفـة كل منهما بسهولة . وقد علاهما الشعور بالخزى لأنهما دخلا مثل هذا المكـان يفـكران فى الخروج بأسرع مايمكن . أطلق الضابط سراحهما . وأيضــا سراح المحصل الذى يسير الآن فى طريق ملأته الأشباح . لن يتقدم باى شكوى الى الوزير . فقد عرف فيما بعد أنه محصل متقاعد .

عندما شـعر الكردى أن دوره قد حـان أحس بالقلق . فهو لايحب أن يمتثل أمام الحكومة لأن هذا يعطيه الاحساس بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه . سوف يدافع ــ أخيرا ــ عن الشعب المظلوم . رغم ان هذا الشعب لم يوكله للدفاع عنه . لكنه ينظر دائما الى العدالة كأنه نصير المظلومين . فهو مشغول بقضايا الحرية التى قد يمسها الظلم من أى ناحية . يحس الآن ان الوقت قد حان كى يهاجم العدالة المجسدة فى هذا الضابط المتغطرس . سـوف يلقنه درسا وسيخبره ان الجريمة والقانون شىء واحد . وأحس بالسعادة .

استدار نور الدين ناحية الكردى . وهو يدقق فيه . كأنه يقوم قيمة فريسته . وأحس هو أيضا بالسعادة :

ــ تعال يامن كنت تضحك .

قام الكردى من مقعده . وجلس أمام المائـدة التى يجلس الضابط خلفها . وقد بدا عليه الاستياء :

ــ لن أجعلك تنتظر . اسمى الكردى . موظف فى وزارة الأشغال العمومية .

لم يحس الكردى بمـدى حقارة وظيفتـه مثلما أحس بها أمام هذا الضـــابط المتعجرف . آه . ليس نور الدين متعجرفا ولكنها طبيعة عمله التى تجعلـه يحتك بالجهلاء الذين تملأهم المرارة . أما الكردى فانه يحتقر أفكار ضباط الشرطة الغبية ولسوء حظه . فقد وضعته الظروف أمام ضابط الشرطة الوحيد الذى لديـه موهبته الخاصة التى يطبقها باسلوبه .

ــ وهكذا يا سـيدى الموظف ترتاد بيوت الدعارة . هل أنت مندوب الوزارة ؟

ــ أجىء هنا بدافع الرغبة . وأعتقد أن الحب ليس ممنوعا فى القانون . والا كان كارثة .

اضاف نور الدين : لا الان ليس ممنوعا .

ــ وهذا ما أتمناه فى المستقبل . لكن هذا لا يثير أى دهشة .

ــ اذن فانت تفهم في القانون . هل لديك الرغبة في الشكوى !

رد الكردى بحماس : ساشكو عندما يكون هناك سببا .

شعر نور الدين بالرضا الذى لم يشعر به أبدا فى تحقيقاته السابقة . يجلس الآن أمامه ــ متورطا فى جريمـة قتـل ــ رجل مثقف . لديه وعى بالأشياء وليس من الرعاع . انه يسعى الى مثل هذا اللقاء منذ سنوات . ترتسم السذاجة فى عينيه ويحس ان هناك تمردا فى هذا الشـاب . يميل الى الهجوم الذى يفتقده منذ زمن طويل .

بالتأكيد ليس الكردى شابا . ثم أن ملامح وجهه قد اكتسبت باشياء غريبة . أثارت انتباه نور الدين الذى بدا وكأنه نسى أفكاره المريرة . الآن فان هناك تغيرا واضحا فيه . طريقته البالغة الرقة . الحقد الذى يحسه تجاه السلطة .

دقق فيه نور الدين ، بنوع من الاعجاب البادى ، وقد شعر بالرضاء ، لذا بدأ يتكلم فجأة باللغة الانجليزية :

ـ هل تأتى كثيرا هنا ؟

رد الكردى بنفس اللغة : كلما وددت اشباع رغبتى .

ـ يبدو لى انك تفضل احدى هؤلاء الفتيات ، وانك عشيقها على ما اعتقد .

علا هذا الحوار ـ باللغة الانجليزية ـ وسط صمت قاتل . لم يفهم الباشكاتب شيئا فتوقف عن الكتابة ، فى أول الأمر حك اذنه معتقدا أن صمما قد أصابها ، ثم تجاوز الأمر ، ووضع قلمه الكوبيا امامه وحاول ان يتظاهر بانه يفهم ما يدور ، تصورت الست أمينة أن هذه اللغة الغريبة تخفى فخا مدبرا لها ، تنهدت وهى تقول :

ـ بشرفى انه ليوم القيامة ، يتكلمون فى بيتى باللغة الانجليزية .

قرر نور الدين ان يستكمل الاستجواب باللغة العربية ، ليس ليطمئن الست امينة ، ولكن لأن المحضر قد وجد نفسه خارج اللعبة ، فأخذ يلكز اسنانه :

ـ هل لك علاقات بأشخاص يأتون هنا ؟ اريد ان اعرف رأيك فيهم .

أمسك الكردى طرف هذا السؤال الجانبى :

ـ على مافهمت ، فانت تعنى أن أحدثك عن الأشخاص الذين يمكنهم ان يرتكبوا جريمة ، دعنى أخبرك ياسيدى الضابط أننى لست وغدا .

ـ لا اقصد ، لقد فهمت خطأ ، أريد أن أعرف ظروف هذا البيت ، هل يمكن ان تعاوننى ؟

رد الكردى : على كل ، فانا لن افعل شيئا أساعد به الشرطة ، وانا لا أعرف شيئا حول هذا الأمر .

ـ اليس لديك اى فكرة حول اسباب هذه الجريمة ؟

ـ هناك افكار كثيرة ، واشك أنك يمكن ان تفهمها .

ـ لماذا ؟ سأكون سعيدا اذا عرفتها .

ـ حسنا ، أنا أعتبر أن المجتمع هو المسئول الوحيد عن هذه الجريمة .

قالت الست أمينة :

ـ ماذا تقول يابنى ؟ هل جننت ؟

اعتقدت أن « المجتمع » الذى يتكلم عنه الكردى يعنى الأشخاص الموجودين خاصة هى ، قال نور الدين وعيناه تلمع باحساس غريب :

ـ اسكتى يا امرأة ! استمر ياعزيزى ، أنت تثير فضولى !

لكن الكردى كان قد انتهى من كلامه ، أحس أنه قال كل مالديه بهذه الجملة الثورية ، قال :

ـ ليس لدى شىء اضيفه .

بدا أن منابع ثورته قد جفت ، قال نور الدين :

ـ للأسف ، وددتك أن نعمق هذه الفكرة ، لايهم ! فى مرة أخرى ، هناك أسئلة أخرى سوف اطرحها عليك .

من الملابسات السعيدة الا يكون هذا الشاب هو القاتل . فهو يتصرف بحرية ومثالية . ويلقى على الجميع تهمة قتل العاهرة . شاب فوضوى ! لعل هناك الكثيرين يفكرون بنفس الاسلوب . أحس نور الدين بالاعجاب بهذا الشاب الذى أيقظ كل أفكاره . وسوف يقوده بالتأكيد الى اكتشاف القاتل . لذا حاول الا يفاجئه سؤال :

ـ هل يمكن أن أسمح لنفسى أن أسألك أين كنت بين الساعة الثانية والسادسة بعد الظهر .

قال الكردى بدون تفكير : أتمشى .

ـ حسنا . عذر عام . لكنه للأسف لايقنع . أليس لديك أقوال أخرى .

ـ يمكنك أن تجد آثار أقدامى . فأنا أرتدى حذاء مميزا . ثم قام الكردى كى يشير الى كعب حذائه .

لم يكن أمام نور الدين الوقت ليرد . فقد فتح باب المنزل ودخل منه ممرضان . يرتديان الملابس البيضاء وهما يحملان نقالة . ادخلهما الشرطى الى غرفة العاهرة القتيلة . فاختفى للائتهم . خرجا بعد قليل يحملان جثة أرتبة مغطاة بملاءة . هنا انفجرت البنات فى الصراخ وهن يلوحن بأذرعهن كالمجانين . سد نور الدين أذنيه وانتظر بفارغ الصبر نهاية هذه الزوبعة المثيرة .

ابتسم الكردى وهو يتذكر ذلك المحصل الذى أصابه الزهو ومدعيا أنه صديق الوزير . ولم لا .

(٥)

استقبله ضجيج الأحداث وأضواء مصابيح الغاز فأحس بالهدوء . امتلأت مقهى المرايا فى تلك الساعة بجمهور غفير شغل كل الموائد . سار بخطى بطيئة فوق الأرضية المصنوعة من الطوب اللبن . يبث الراديو العتيق بعض الموسيقى الفاضبة العالية . فتمتزج بأصوات وضحكات الجالسين . وسط هذا الحشد الغفير ترى شحاذين متجولين . وجامعى أعقاب سجائر . وباعة يطلقون الدعايات . كأنهم بهلوانات فى ساحة عرض . بدت مقهى المرايا كمكان حلقة الحكماء . بعيد عن عالم الأحزان . يشعر يحيى دائما بالاعجاب بهذا المكان الذى يشعر فيه بسعادة أقرب الى الهذيان . يبدو الفقر مجسدا فى ملابسهم القديمة . التى تلتصق بأجسادهم النحيلة . لم يغسلوا وجوههم خشية ان تظهر نحافتهم أكثر .

زحام حقيقى . شق يحيى طريقا لنفسه ، سعيدا بهذه الضجة الأبدية . وأن يجد نفسه فوق هذا المكان . فهنا . لا يزعج دمامته

احد . بالعكس فهى تتناسب مع هـذا المكان سرعان ما عرفوه . واطلقت عليه التحيات الودودة . فى بعض الأحيان يدعى الى تناول كوب شاى . انه يبحث عن جوهر ، لعله ينتظره . فعندما تنقص المخدرات يقع فريسـة للمعاناة ، فمعاناة جوهر هى الشىء الوحيد الذى لا يحتمله فى الدنيا لأنها تجعله قلقا . انه يضع كل كرامته جانبا كى يوفر لجوهر نصيبه اليومى من الحشيش . ولانه يقدم مثل هذا النوع من السعادة لرجل . وهى لا تدوم سوى ساعات . فانه يرى أن هذا الأمر أكثر فعالية من كل المحاولات التى لا تجدى والتى يبذلها المصلحون والمثاليون لانتزاعه من هذا العذاب الأدمى . يشعر يحيى انه يقدم أشياء ملموسة ، فالحلول بطيئة والنظريات المطروحة للتخفيف عن معاناة الشعب لا تمثل بالنسبة له الا دعايات سخيفة .

ضحك وهو شارد الفكر .

ودون أن يتكلم ، احس انه أسير لقائه الفـائت مع الفتـاة الحسناء . لقد نجح فى الدخول اليها من خلال القصيدة . رغم قلقه من نتائج هذه المغامرة التى لا تحمد عقباها بالنسبة لحياته الخاصة .

أولا : لأنه واثق انه لا يكن لها اى شعور بالحب . فالأمر لا يعدو رغبة تنتابه . فهذه الفتاة المتغطرسة تبدو كأنها تتحداه . وقد أعطاه رد فعلها ازاء دعابته انطباعا عن مكرها . يرى يحيى أن هناك شيئا غير طبيعى فى سلوكها مما يدفعه ان يستكمل هذه التجربة الفريدة . انها المرة الأولى التى يجد نفسه يهتم بامرأة .. الا أنه لم يتخل عن كبريائه . فهو لا يمكن أن يترك بسهولة هذا المنبع الذى يسليه ويشكل له وجودا حسيا . فلديه ما يكفيه بالنسبة لقانون الاحتمالات كى يعرف أن مغامرة كهذه لن تتاح لرجل مثله قبل ثلاثة أجيال . لذا عليه أن ينتهزها ، ثم ان دروس البيانو

تضيف غرابة على المغامرة . ليس لأن يحيى يحب الموسيقى . فعلى العكس فهو يكرهها بشدة . ولكنه لا يصدق ان الفتاة سوف تعزف يوما أثناء حضوره .

هل يحدث جوهر عنهـا ؟ عليه ان يجده . وسـط انوار المصابيح . فكر فى المرايا الضخمة التى تملأ الجدارن ، ارتعد بصره الضعيف . تقدم وسط الزحام بصعوبة عندما احس بيد تمسكه .

ـ عزيزى يحيى . تفضل وشرفنى بالجلوس على مائدتى .

استدار يحيى . انه رجل شاذ معروف . يرتدى جلبابا من الحرير الأخضر ومعطفا واسعا ملونا ، يصبغ شعره وشاربه ويضع خاتما ثقيلا فى أصبعه . تاجر أقمشة بالغ الثراء . مشغوف بالأدب . كثيرا ما شعر يحيى بغموض فى نظرات هذا الرجل .

ـ ما أخبار الشعر ؟

قال يحيى : يحتضر .

ـ ولا يهمك . تفضل واشرب شايا معى . فأنا انتظرك على احر من الجمر .

ـ آسف . فأنا ابحث عن صديق .

غمز الرجل بعينه وقال : لقد فهمت .

ـ لم تفهم . فلم أصبح بعد مثلك . وقد يحدث يوما .

ـ سيكون يوما عظيما . ساكون سعيدا وانا أعدك ضمن أصدقائى .

قال يحيى محتجا : لا تفكر . مع مثل هذا الوجه .

ـ لا تنس انك جذاب بالنسبة لى . فأنا أحب العباقرة .

ـ وهل تريد أن تشاركني عبقريتي ٠

انفجرا ضاحكين ٠ قال يحيى :

ـ هذا مستحيل لأنني لست عبقريا ٠ السلام عليكم ٠ سأراك فيما بعد ٠

ـ اذن الا تقبل هذه السيجارة ؟

مد ليحيى علبة سجائر فخمة فأخذ منها واحدة أشعلها الرجل بولاعته الذهبية :

شكرا ٠

ترك يحيى التاجر الكبير ٠ وبدأ من جديد يبحث عن جوهر ٠ أين اختفى ؟

لا يراه في أي مكان ٠

بدأ يشعر بالعصبية وهو يرى جامع أعقاب السجائر يسير في عقبيه ينتظر اللحظة التي يلقي فيها سيجارته ٠ بدا طعم عقب السيجارة رائعا للصغير وهو يدخنها ٠ تتبع يحيى الذى ألقى سيجارته كي يتخلص من هذه المطاردة رغم أنه لم ينته منها بعد ٠

هتف الطفل وهو يلتقط العقب : ليحفظك الله ٠

فجاءة رأى جوهر في محل الحلاق ـ طراز من الأكواخ التي لا أبواب لها ـ تنعكس عليه أضواء المقهى فتنيره يجلس جوهر فوق المقعد الوحيد وقد هده التعب ٠ انتبه على صوت يحيى :

ـ تحياتي لأستاذي ٠

ـ لقد جئت أخيرا ، يابني !

انحنى يحيى ناحية الأرض ، ساخرا كأنه يقدم كل احترامه لأستاذه :

ـ تحت أمرك دائما ٠ ألن أزعجك ؟

ـ لا طبعا ٠ اجلس ٠

اسرع يحيى لاحضار مقعد أخذ يجره فوق الأرض ٠ ثم جلس قريبا من جوهر وهو يلاعب وجهه ٠ في كل مرة يتم نقله بنفس الخفة ، يقال أن وجود جوهر يجعله في أحسن حال ٠ فتهرب منه كل معاناته ، وتتلاشى عندما يلمسح استاذه ٠ وسرعان ما ينسى دمامته ٠

ران الصمت في محل الحلاق ـ على جوهر مما أكسبه قوة خفية ٠ يحترم يحيى هذا الصمت ٠ يعرف أن صمت جوهر صفاء داخلي وبساطة ٠ لكن فجأة انتابه احساس انه قد أهمل تماما ، رغم انه لم يطلب شيئا أبدا ، يغرق جوهر في خضم شيء واحد هو المخدرات ، وبحيوية أخرج من جيبه ورقة ملفوفة ٠ وفتحها وقسمها الى قطعتين ٠ قدم القطعة الكبيرة الى جوهر ٠ امسكها دون أن ينبس ببنت شفة ، لفها بين أصابعه وضع منها كرة صغيرة ثم وضعها تحت لسانه وكأنه يضع قطعة من السكر ٠ أحس ان الحياة تعود اليه ببطء وان دماءه تجرى في عروقه ٠ أغلق عينيه وهو يشعر بالكمال في هذه اللحظة الرائعة التي جاءت بعد ضياع تام ٠ لم يتحرك يحيى ، يبدو مشدوها لطريقة جوهر في تناول المخدرات بالفم لسهولته ٠ يعرف أن هناك أساليبا معقدة لتناولها ٠ ويحيى يحب أجواء المدخنين الساحرة ٠ الدخان الكثيف المتصاعد كأنه الضباب ، وخاصة الرائحة الخانقة التي تظل عالقة بالملابس لفترة طويلة أكثر من عطور النساء ٠ هناك خيال رائع يجمع في روحه كشاعر ٠ لا يحسها في جوهر وهو يتعاطى المخدارت بالفم ٠ يشعر يحيى بالحواز أمام كل هذه المحاولات ٠ يقال ان التأثير لا يختلف ٠ وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الحسرة على هذه الطريقة التي ينقصها ديكور الدخان ٠

أخذ يحرك لسانه وهو يرقب كل حركات وجه رفيقه . يشعر بالمتعة عندما تنتابه فكرة الحديث معه . لكن جوهر لا يزال صامتا حتى الآن . ولم يبق شيء يدل أنه حي سوى أنفاسه الخائرة .

بعد أن ترك الماخور الذى خنق فيه العاهرة الصغيرة . أخذ جوهر يتجول فى الشوارع باحثا عن يحيى ، استولت عليه رغبة عارمة فى تناول المخدرات . تصور نفسه فى مسرحية مأساوية ضاعت أهميتها وسط تلاطم الأمواج . ما أهمية جريمة واحدة وسط العديد من الجرائم التى ترتكب كل يوم بشتى الصور : الحروب والمذابح والضغوط . بالتأكيد فهو لم يشعر بالشفقة . رغم أن صورة ضحيته تخنقه عبر طرق المدينة . على كل فهو لم يود أن يحشر نفسه فى هذا الأمر . لكن كيف يفسر هـذه الجريمة ؟ أى مصير ساقه الى دنيا الجريمـة والشر . رفض جوهر أن يصـدق ما حدث .

لم يتخيل أن مصيرا ينتظره يمكنه الفرار منه أن يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى احدى المدارس الخاصة بالشعب ؟ هل قدره هو ان يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى المدارس الشعبية . هل يخون قدره بالهروب من هذه الأكاذيب ؟ بلا شك فهو رجل مرموق ونتاج حضارة لا تحبذ ارتكاب جريمة القتل ولكنه يؤمن أنه قد هرب الى الشفافية والسلام والسكينة فوق الأرض المغتصبة التى يعيش عليها نبيل يحب البهجة . ألم ينجح فى أن يحضر معه الرعب والاغتيال الى الملتصقين بجسده ؟ هل ستنتهى تجربته الى الفشل ؟ لا يصدق هذا .

كان يعرف دوما انه يجب ان يضع فى حسبانه عدالة البشر . فلن يمكن للشرطة أن تقوم بتحليل المجردات . فالمصير بالنسبة له يعنى سيف الجـلاد . ولن تفهم الشرطة القهر الضـاغط . انهم مشغولون بادخال العبيد الى عبوديتهم يعرف جوهر انهم سـوف

يبحثون عنه بشتى الطرق . ليس لأن قتل هـذه العاهرة يمثل بالنسبة لهم مشهدا بشعا غير آدمى . ولكن ببساطة لأنه يزعج طغيانهم ، والمفهوم التالى أن كل مخطىء يجب ان ينال عقابه هو ايضا أحد الأكاذيب التى تستشرى فى مجتمع مؤلم وقذر هذه هى الأخلاق السيئة التى يقوم بتعليمها وهو يعتقد انها أقرب الى ثروة غير مفيدة كأنما الأمر مؤامرة سيئة ضد الشعب . فليست هناك وسيلة لاحترام الفقراء . لن يبقى له بعد هذه الجريمة ـ سـوى كذباته القديمة وعماه المعقد تجاه القوى الجهنمية . لقد حطم كل شيء وكسر كل الروابط التى تربطه بهذا العالم الكريه لكنه ينتمى الى هؤلاء البشر المطاردين ، الذين يعيشون فى بؤرات الخوف ولكنهم يتمتعون بمقدرة طيبة على الحياة .

لا توجد عدالة قادرة على اعادة الحياة الى أرنبة . ولكنه هو ـ جوهر ـ حى . وعلى الشرطة أن تكافح ضد عدو حى ، رجل حى من الطراز المرعب ، يشعر بآلام كثيرة تحبطه ، عليه ان يناضل بكل ما يملك للاحتفاظ بهذه الحياة الجديدة التى تنتمى الى القوى الفوق آدمية .

وهو يشـعر بالحشيش يقوم بدوره . تحرك جوهر فـوق المقعد ، فتح عينه وابتسم وسط الظلام ، فهم يحيى انه يمكن أن يتكلم أخيرا :

ـ ماذا لديك لتقوله يا سيدى ؟

ـ اسكت يابنى . لقد عشت يوما مشهودا .

ـ كيف ؟

ابتهج يحيى وهو يدلك يديه . وبدأ وجهه يتحرك أكثر من ذى قبل . فصوت جوهر يؤكد انه سوف يسمع حكاية غريبة .

روى له مأساة الصباح . جاره الميت والمياه الملونة التي غمرت حجرته وصراخ النائحات .

ـ أسير في الشوارع منذ الظهيرة . وهذا شيء مرعب .

هتف يحيى : انها حكاية غريبة . تستحق العناء . سيدي . مثل هذه الحكايات لا تحدث الا لك . بشرفي أنا غيور منك .

قال جوهر : بحثت عنك في كل مكان . أين كنت ؟
بدا يحيى مهما . كأنه جزء من السر :
ـ ذهبت أزور أمي .

هناك شيء ما يتعلق بأم يحيى حاول جــوهر أن يتذكره . ماذا ؟ لقد تذكر الآن :

ـ سمعت انها ماتت . تمنيت ان يكون الخبر كاذبا . أقــدم لك عزائي يحيى .

قال يحيى ضاحكا : شكرا يا سيدي فالخبر ليس صحيحا . فهي حية ترزق . وقد نجحت في أن أجعلها تعطيني نقودا ونصائح أخلاقية . فقط أردت أن أجمع بعض النقود . ما رأيك ؟

ـ أعتقد انها فكرة رائعة . وأتمنى لك النجاح .

قال يحيى مغتبطا : أليس كذلك ؟ كنت واثقا انك ستوافق علي . فهي امرأة رائعة .

ـ من . أمك ؟

ـ أجل . تقول لي أحيانا كلاما يقطع الأنفاس . رغم انني أعرف أنها لا تتعاطى الحشيش .

هل تعرف ماذا قالت يوما ؟

ـ لا . سأكون سعيدا ان أعرف .

ـ قالت لي : « انت الآن كبير كي تواجه ربك بنفسك » . أليس هذا رائعا ؟

قال جوهر : لا أفهم .

ـ لا تريد أن أسير في طريق الضلال . انظر لي يا سيدي ! انت تراني في أواجه الله وحدي ولم أضل قط .

ـ ماذا أسمع . منذ متى تتعامل مع الله ؟

ـ لم اهتم أبدا . كانت أمي تتولى شئوني . هناك اتفاق شرف بيننا .

لكنه انتهى الآن ، مضطر أن أتصرف وحدي . يجب ان أوفر مبلغا من أجل جنازتها .

ـ أعرف أن رأيك صحيح . أحيانا ...

ظل فوه فاغرا . فسحر الحشيش يجعله يغرق في هوس ، وتأخذ الأشياء أشكالا مختلفة ، يبدو انه لا يوجد مستحيل . يجلس فوق مقعده . وقد وضع يديه فوق عصاه التي يحتفظ بها بين سيقانه . فكر في العلاقة التي تربط يحيى بربه . ويرى أن الله يقف مع يحيى ويساعده . يبدو كأنه يمارس العديد من أعمال الايمان معه بشكل يجعله انسانا ضعيفا ومميزا ، يبدو الطرفان وكأن كل منهما يعرف الآخر منذ أمد طويل ، يقــولان كلاما بالغ القسوة دون غضب أو أن ترتفع حدتهما . ولكن هل هناك مسافة في هذه الرؤية .

يقع كوخ الحلاق على مسافة قصــيرة من مقهى المرايا . فوق رصيف ملآنه الزبالة . في المساء يأتي الشحاذون وجامعو أعقاب السجائر اليه كي يناموا فيه . يتكدسون كأنهم حيوانات في حظيرة .

اكتشف جوهر هذا المكان ذات مساء كان يبحث فيه عن مكان هادئ ، ومنذ ذلك الحين يجده أنسب مكان ، أما مقعد الحلاق فانه مصنوع لراحته . قال يحيى :

ـ سيدى . أريد أن أحدثك بشيء .

ـ قل .

ـ أنا واقع فى تجربة عاطفية .

ـ تحياتى . من هى سعيدة الحظ ؟

ـ فتاة تختلف .

قال جوهر : من هى الفتاة التى تختلف . عهدتك أكثر ذكاء يا عزيزى يحيى .

ـ أعنى أنها ليست عاهرة .

ـ برجوازية .

ـ أجل . فأبوها موظف .

ـ يا للبشاعة : هل تحبها ؟

ـ هل تعاملنى مثل الكردى يا سيدى . لست طفلا .

ـ وليس الكردى طفلا أنت لا تعرفه . فهو واقع تحت سيطرة الأدب الأوربى الذى يجعل من المرأة مركز الغموض . والكردى يفكر ان المرأة مخلوق مفكر تدفعه حاجته القانونية عنها أكثر منه كشخصية اجتماعية . وهو فى الحقيقة لا يؤمن بذلك فكل ما يطلبه من المرأة . هو أن يكون معها أغلب الوقت دون أن يدفع لها ، لأنه فقير .

ـ لكن الأمر يختلف بالنسبة لى فأنا لا أود أن أنام معها .

ـ حب أفلاطونى . اذن فالمصيبة أكبر .

ـ ليست مسألة حب . ولكنه شيء آخر .

ـ ماذا اذن ؟

ـ لا أعرف .

سكت يحيى . لاحظ أن بعض الأطفال الأشعثى الشعر يقفون على مدخل الكوخ يسمعون حديثهما فى وجوم ويبدون مندهشين لما يسمعون . قال :

ـ لا يوجد مدخنون هنا . ولا توجد أعقاب . أنتم تضيعون أوقاتكم .

قالت فتاة فى الثامنة من عمرها وترتدى فستانا متعدد الوان : لا نبحث عن أعقاب . نود ان ننام . فهذا مكاننا .

قال يحيى : اذن تريدون النوم . لكن الوقت مبكرا . فتنزهوا قليلا .

قالت الصغيرة ذات الشعر المصبوغ بالحناء : اعطنى قرشا .

بدت كأنها دمية صغيرة . قال يحيى : قرش ماذا ستفعلين به ، ألست خجولة من الشحاذة دعينا فى حالنا . فنحن نتناقش فى أمر هام .

قالت الفتاة وهى تبوز فمها : هيا بنا . فهم فقراء .

قال يحيى : هذا هو عيب الظلام .

ظل الأولاد جالسين قريبا من الكوخ . بينما يتطلع يحيى اليهم ويسمعهم ينطقون بكلمات بذيئة . لعلهم يفكرون فى أن يخليا المكان لهم . يعرف أنهم سيعودون الى أعمالهم .

ـ هذه الفتاة تدهشنى .

سأل جوهر : من . جامعة الأعقاب ؟

— لا يا سيدى . ابنة الموظف . لم تشمئز من منظرى . بل ابتسمت لى . أعتقد انها ترانى لطيفا .

قال جوهر قلقا : دعك من السذاجة . انها ترضى غرورك يا عزيزى يحيى . هذه الفتاة هى الهاوية .

— نسيت ان أخبرك انها تدرس البيانو .

— لم يستطيع جوهر أن يرد . فقد أزعجوه مرة أخرى . هذه المرة بائع أوراق يا نصيب . يمد له آخر ورقة بدت مجعدة قذرة . يبدو أنه التقطها من الأرض . صاح يحيى :

— كم تكسب هذه الورقة ؟

رد الرجل : ألف جنيه يابك .

— لا تكفى . أليست معك واحدة تكسب عشرة آلاف ؟

— لا توجد ورقة تكسب عشرة آلاف — لا يوجد سوى الف . وهذه هى الورقة الرابحة اشترها وسيباركك الله .

قال يحيى : اذهب . فألف جنيه شىء طيب للمتشردين .

ابتعد الرجل فى الظلام وهو يلعن كل الأسباب التى دفعته للزواج .

— هل تتصور يا سيدى . ان يكون معنا الف جنيه ؟

— ولماذا تفعل يابنى ؟

— يمكنك ان تسافر الى سوريا .

اثار حلم السفر جوهر بدلا من أن يمتعه . فهـذا يذكره بجريمته . لقد انهار الحلم . هذا الحلم الذى لن يتحقق أبدا .

أفسد حلمه الأوحد . سوريا الفردوس التى يريد ان يقضى بها أياما سعيدة . من الصعب التخلص من تأثيرها عليه . ليست حلما . ولكن التخلص من الحلم ليس سوى الخلاص الأبدى . قال يحيى :

— يمكننى ان آتى معك .

أدار جوهر رأسه الى رفيقه . كيف يخبره أن هذا مستحيل كيف يحدثه عن هذه الجريمة البشعة . لا يشعر أنه قادر على الاعتراف . ربما سيروى له كل شىء فيما بعد . فغر يحيى فاه ، وهو يشاهد شبح الكردى واقفا أمام الكوخ :

— لقد حدث أمر مرعب . ولا استطيع أن اتماسك .

لم يشعر الرجلان بالقلق لهذا المدخل . فهذا أمر مألوف . فالكردى يترك الناس يتصرفون دائما كأنه رجل يهرب من ممارسة الجنس أن يترك له وقتا لاستعادة أنفاسه وهـكذا ظلا ساكتين لا يسألاه . انتظر بفارغ الصبر أن يقول لهما السبب فى اضطرابه. وسط هذا الصمت القاتل أطلق الكردى تنهيدة وقال :

— ليس الأمر مزاحا . فقد دخلت بيت الست أمينة ووجدته يعج برجال الشرطة .

هتف يحيى : حملة آداب .

— لا . فقد اعتقدت هذا فى أول الأمر . لكن الأمر أكثر خطورة . لقد قتلت الفتاة أرنبة المستجدة .

وهو يتوقع تأثير ما يقول . هذا الكردى . وهو يعتبر أنه نقل اليهما خبر المأساة .

سأل يحيى :

- هل عرفوا القاتل ؟

- لا . كل ما عرفوه انه لم يسرق شيئا . لقد خنق الفتاة . وهذا يثير جنون الضابط . ليست لديه شبهات فى أحد . جئت اخبركما الا تذهبا هناك . لقد استجوبنى . وكان أمرا صعبا .

سأل يحيى :

- أى نوع من الاستجواب . هل ضربوك ؟

- لم يجرؤ أحد . عندما قلت أننى موظف حكومة غير الضابط لهجته معى . شخص غريب .

أتعرف انه تكلم معى مباشرة باللغة الانجليزية ؟

قال يحيى : أماه . بالانجليزية ؟

- طبعا . لكن هذا لم يعجب الست أمينة . لم تصدق أن هناك اشخاصا يتكلمون باللغة الانجليزية فى منزلها .

- أعرف هذا النوع من الضباط . انه يخدعك .

قال الكردى :

- لا أحد يخدعنى .

بدأ يتكلم عن الاستجواب . واحتفظ لنفسه بدور البطل الثورى فى ردوده على الضابط .. وهو يؤكد ان الاستجواب كان عنيفا لكنه دافع عن نفسه بكل قوة .

- لقد تصورته غبيا . لا يعرف كيف يخرج من هذا المأزق .

لاحظ ان جوهر لم يقل شيئا فلصمت أستاذه اهمية خاصة . ويبدو غير مقبول التفسير . ترى هل مات فوق مقعده ؟ قال :

- أريد أن أعرف رأيك يا سيدى . جريمة قاتمة . أليس كذلك ؟

رد جوهر كأنه يحادث نفسه ؟ ربما كان خطأ يابنى .

- خطأ . من قال ذلك يا سيدى ؟

ثم انفجر ضاحكا .

- نسيت لأخبرك انه كان يوجد رجل . زعم انه صديق وزير ...

فى هذه اللحظة . دخل رجل حافى يرتدى أسمالا . دفع الكردى ودخل الحانوت .

بدا ثائرا :

- أين الحلاق . أريد ان أقص شعرى .

قال جوهر وهو يهب واقفا . هاتفا . تفضل حضرتك بالجلوس .

جلس الرجل فوق المقعد . وغط فى نوم عميق . قال جوهر وهو يسمع شخيره :

- هيا بنا .

قال الكردى : أريد ان أتناول شايا . فقد جفف هذا الأمر حلقى .

سار الرجال الثلاثة ناحية أضواء المقهى . وهم يسخرون من هذا المحصل الذى رآه الكردى فى الماخور . لقد نسوا الجريمة . وكان جوهر أكثرهم نسيانا .

(٦)

في الساعة الحادية عشر صباحا . جلس الكردى خلف مكتبه في وزارة الأشغال العمومية وقد بدأ الذباب في الطنين من حوله . الغرفة كبيرة واسعة مضاءة من خلال النوافذ العالية وتوجد بها مكاتب عديدة يجلس الموظفون خلفها . فيبدو الأمر بالنسبة له أكثر بشاعة من السجن .

ـ انه سجن من نوع خاص . وضعوه فيه بصفة دائمة مع سجناء القانون العام . لقد وافق الكردى ان يكون مسجونا . ولكن شريطة أن يكون وحده في الزنزانة . تحت شعار قضية سياسية . ويقع باحزانه في خليط من المشاعر النبيلة الارستقراطية لم يكن واعيا لها أبدا . كيف يفكر على سجيته في مشاكل ذات صبغة عالمية أمام هذه الوجوه المليئة بالغبار . وقد نذرت نفسها للعبودية بلا حدود . وكي يعلن احتجاجه على هذا الظلم . رفض الكردى ممارسة العمل . راغبا ان يحقق استقلاله الروحي . ولأن أحدا لا يلحظ هذا الاحتجاج في داخله . فانه يتضايق .

ليس سبب هذا هو المكر ، او الكبرياء فى ان يمارس عملا يمكن ان يمارسه الأطفال ولكنه لأنه محبوس بصورة تثير الرثاء . يزامله اشخاص لا يستطيع ان يحتملهم فمعهم تبدو الحياة شيئا آخر . وكانها حلم مزعج . ماذا فعل كى يلقى عقابا كهذا ؟ يجد الكردى نفسه فى مواقف ميئوس منها ، ان يرى نفسه يفر من هذا العدم . وهذا الروتين البيروقراطى . الغبى . الذى لا جدوى منه . يشك فى مصيره . انه لا يعرف ما يمكنه ان يفعل . فعندما يشعر انه فريسة لقلق أسود ــ مثلما يحس فى هذه اللحظة ــ يتخيل مأساة الشعب والضغوط المرعبة التى يقع ضحيتها ، يحلم بثورة قوية دامية . ولكنه اذا خرج الى الشارع واختلط بالناس : فان مأساة الشعب تصبح أسطوريا . تفقد كل عنفها وقوتها التفجيرية . يشعر انه مجذوب لادق التفاصيل الرائعة لهذه المأساة . نعظمة هذا المزاج لا ينضب . يحب فى هذا الشعب الفقير شغفه بالمرح ورغبته فى السعادة والأمن تحدث وهو يعتقد انه أقل البشر حظا ؟ اين البؤس اذن ؟ أين قوى الضغط ؟ قيل ان هذه الصور التى تتزيف فى موضوع هذه المأساة فى العدم مثل الخيالات التى يشاهدها اثناء نومه.على الكردى أن يحاول جاهدا اكتشاف العنصر الهام فى تمرده ، وعليه ان ينغمس فى دموعه . أو تهزه نكتة كبيرة.

ليس كل هذا بالشىء الهام . فقد أراد الكردى شعبا مفصلا على مقاسه : حزينا تحركه مشاعر الانتقام . ولكن أين يجده ؟

يحلم ان يكون رجلا مؤثرا . تتأجج دماؤه من القلق . هذا العمل السخيف . الذى يسد به رمقه . ليس الا لتقليل عطشه نحو العدالة الاجتماعية . انه حزين لانه يقضى أغلب وقته مع زملاء اكثر بؤسا منه ــ متزوجون وآباء للعديد من الابناء يبدو اكثر بؤسا مع نهاية كل شهر يأتى الزملاء الذين يرتبط عملهم بالكردى

ويقفون صفا أمام مكتبه . يشعر الكردى فى هذه اللحظة انه صاحب عمل يدفع لهم أجرهم أما النقود التى تتبقى له ، فعليه ان يصرفها كى يعيش فهو يحيا حياة بالغة البؤس . ولكنها كريمة . المظاهر شىء هام بالنسبة له . على سبيل المثال فعندما يضطر ان ياكل فول مدمس . يجد نفسه يحادث البائع بانه لا ياكل سوى الفراخ وان كثرة أكلها أفسدت شهيته . ورغم أن البائع لا تخدعه هذه الكلمات . الا ان مظهره يقنعه بذلك .

من مقعده يتأمل هؤلاء الزملاء المساكين ويرى فيهم سلسلة من العبودية . وهذه الساعات الطويلة التى يقتطعها من حريته تجعله حساسا تماما لآلام البشر يحرك مقعده وهو يطلق تنهيدة عميقة . يرفع العبيد المشغولون بالأعمال الشاقة رؤوسهم اليه وهم يلقون عليه نظرة غامضة . فيرد الكردى عليهم بنظرة عدوانية يحتقرهم جميعا . لا يمكنه أن يصنع الثورة مع ناس مثلهم . انهم هناك منذ سنوات . كم عام . لا أحد يعرف . ملتصقين بأماكنهم . تغطيهم الأتربة . وأوجه تشبه المومياءات . متحف حقيقى للرعب عندما يفكر انه سيغدو مثلهم يفكر توا فى الفرار . ثم يشعر أن ساعة رحيله لم تحن بعد . ويظل يعانى فى هدوء .

وكى يفر من ضغط زملائه . حاول الكردى أن يهرب الى احلامه كعاشق . لم ير نايلة منذ ليلة الجريمة . اى منذ ثلاثة أيام وبدأ يشعر بالأحداث المشئومة التى احاطت بالماخور الذى تحرسه الشرطة . لذا تلزمه المخاطرة كى يقوم بمغامرة . فكر الكردى فى الفتاة وتخيلها مريضة وحيدة . تتوق لرؤيته وتلفظ اسمه عند النفس الأخير . ظل يفكر فى هذا الأمر فترة طويلة . ثم تملكته الرغبة أن يسطر خطابا لنايلة وأن يكلمها عن حبه وعن معاناة الشعب . للأسف فانه لا يستطيع أن يضع فكرته موضع التنفيذ :

لأنه لا يجد قلمه . تذكر أن رئيس المكتب قد أخذه منذ فترة بادعاء استعماله . في أول الأمر أحس الكردى بالغضب . ولكن بسرعة شعر بشيء ينزاح عن صدره فلديه الآن سبب يعتذر به عن عدم كتابة الخطاب . وهو أن نايلة لا تعرف القراءة .

يطير بعض الذباب فى الغرفة . يحط على أنفه . حاول الكردى أن يضرب احداها لكنه فشل ، يشعر انه يفتقد الحقة الضرورية لهذا النوع من الاصطياد ، من جديد وللمرة العاشرة أمسك الصحيفة التى فوق مكتبه وتصفحها بعينه . هناك عناوين ضخمة تعلن أن العالم يتسلح من أجل حرب قادمة . يبدو هذا فى الصحيفة كأنه شيء بعينه ولا يوجد له صدى مباشر فى الحياة اليومية . ثم اعلان الأمر بطريقة مبتذلة كأن الصحف تؤمن بالأمر الواقع . ولكن الكردى وجد نفسه فى هذه اللحظة فى حالة نفسية جعلته حساسا لأقل خطر فاعلان مثل هذا التسليح يبدو له للوهلة الأولى انعكاسا لواقع شرس همجى . فهى ليست كلمات مطبوعة بصورة مبسطة فى صحيفة . ولكنها تؤكد احتمال نشوب حرب موجهة ضد البشرية وخاصة ضده هو كأنهم يحفزونه أن يشهر كل أسلحته . شعر بألم مرعب . سوف تكون المذبحة مؤلمة سوف يسلخون جلده . ولكن ماذا يفعل انذاك ؟ ظل جالســـا خلف مكتبه لا يقوى على الحراك . عليه أن يفعل شيئا . أولا أن يشترى سلاحا فى عالم تتسلح فيه كل الدنيا . ومن غير المجـد أن يظل أعزل . انتظر فسوف يقتلونك .. ولن يتركوك تهددهم . يجب أن أتحدث مع جوهر ؟ ابتسم وهو يتصور جوهر مسلحا بمدفع رشاش . انهـا المرة الأولى التى يبتسم فيها هذا الصباح .

أمام هذه الفكرة المسلية لم يستطع الكردى أن يقاوم لفترة طويلة ذلك الغـذاء الخارجى لقد أدى دور العدالة . قام من مقعده وصاح :

ـ عز الدين أفندى .

انه رئيس المكتب . رجل عجوز ضعيف البصر للغاية . تجعله نظارته أشبه بحيوانات ما قبل التاريخ . يلتصق وجهه بالملف الذى يقرأه . سأل بصوت أجش :

ـ ماذا هناك ؟

ـ أصابتنى دوخة .

ـ ولا يهمك يابنى . صدقنى نحن نأسف لهذه الدوخة .

اعتاد الكردى على هذه الأمور يعرف أن رئيس المكتب يعتبره ممتازا . وأن مجرد وجوده يعنى انه موظف كفء . فهو مثال سيء لزملائه المساكين .

ـ السلام عليكم .

قال عز الدين أفندى : لا تأخذ الرجوع فى حسبانك ، بـل خذ راحتك .

هز الكردى كتفيه . ودون أن ينظر الى زملائه المترهلين . خرج من الغرفة . لم تكن الثورة بالنسبة له سوى تخفيف لتبرمه . ذات مرة تخلص الكردى من جلاديه فى حديقة الوزارة . لم يفكر كثيرا ، الشمس صحوة . وقد ولدت فيها نســمة الربيع أفكارا حساسة ، عجل خطاه . آملا أن يرى نايلة ، تملكه الفضول أن يعرف شيئا ما عن الجريمة . ثم اختلط بهذه الجريمة . ولا يمكنه أن ينســاها فقد جعـله اســتجواب ضـابط الشرطة يشعر بلذة الحوار التلقائى حيث أحس انه قريب من الخطر . الخطر الحقيقى . فلم يكن الأمر مزاحا . لم يكن الضابط يلهو حين استجوبه . ارتعد الكردى حين تذكر هذا الموقف فلأنها تجربته الأولى فهو لم يشك

فيما تمثله السلطة ٠ يريد أن يقف ثانيا أمام هذا الضابط الجاهل ٠ فهو لا يخشى أحدا ٠ ماذا سيحدث لو قبض عليه ؟

تملكته دهشة ٠ شعر انه يفكر فى الضابط دون عداء أو حقد ٠ ولكن بفرحـة وبمتعة سادية ٠ غريب ! تسـاءل ٠ حتى الآن فان مشاعره نحو نور الدين قد صبغت بحقد ثابت يمكنه من اختبار قوته ٠ اكتشف فجاة شيئا غريبا ٠ فنور الدين ليس ضابطا متعجرفا ٠ ولكنه فريسـة رغباته ٠ والمتاعب تلحق به ٠ وخلف هذه الاكذوبة ووراء الضغط الذى لا ينتهى والذى يمارسه على العديد من الناس فانه يمتلك وجها جديدا ٠ وفى هذا الوجه فكر الكردى فى مشاعره المضطربة ٠ حاول أن يتذكر حادثا واحدا بذاته أثناء الاستجـواب خارجا عن حدود الروتين البوليسى من هو بالضبط ؟ أجل ٠ لقد تحدث معه باللغة الانجليزية : اللغة الوحيدة التى يفهمانها ٠ ترى لماذا ؟ كان هناك شىء ما فى هذه اللغة الغريبة ٠ كان نور الدين قد ترك استجوابه وأراد أن تكون فيما بينهما رابطة من المحبة تذكر الكردى منظره البهيج وصوته الصافى ٠ وقد امتلأ بثقـة تتفق مع مظهره عندما حدثه عن علاقته بالفتاة نايلة ٠ أحس أن الضابط قـد خرج عن مألوف وظيفته الرسمية كى يغدو انسانا محبوبا ٠ جذابا وقد كان ٠ يا الهى : لقد أدرك الآن أن نور الدين ضابط الشرطة يمثل نموذج الضابط الشريف ٠ وليس غليظا بالمرة ٠

وعندما توصل الى العمق الانسانى لهذا الاكتشاف ٠ عبر الكردى حى الوزارات ثم دخل فى حارة شعبية ٠ ووجد نفسه واقفا أمام بيت الست امينة وأثناء طريقه لم يكن يفكر فى هذه الفروق الاجتماعية التى اعتاد ان يكررها بوتيرة واحدة ٠ ففكرة أن الضابط شخص جذاب قد جعلته بالغ السعادة ونسى موقفه ضد السلطة ٠ وتحول الخوف الذى أحسه خلال الأيام الأخيرة والذى لم يبح به ـ

الى تفاؤل رائع ٠ بالتأكيد فهو لا يرهب جانبه ولهذا يسرع الآن للقاء نور الدين ٠

كست وجهه ابتسامة رضـاء عندما طرق على باب المنزل ٠ هتف زايد :

ـ الكردى أفندى : يا الهى لماذا تجىء هنا ؟ فالمنزل مغلق ونحن لا نعمل ٠

قال الكردى : انها زيارة ودية ٠ دعنى أدخل ٠

ـ نحن مراقبون ٠ الم يرك أحد ؟

ـ لا ٠ لم يرنى أحد ٠ اهدأ ٠ فأنا الرجل الخفى ٠

ـ ادخل ٠ فعين الشرطة علينا ٠

دخل الكردى ونظر الى زايد وهو يغلق الباب ٠

ـ الم تشعر انك فى سجن ؟

قال زايد بصوت مرتجف : هيا ، هيا ٠ يا كردى أفندى ٠ أرجوك لا تمزح ٠ كدنا أن نموت من الانتظار ٠

ـ من هذا ؟

لم يرد زايد ٠ رمقه واختفى فى الممر وقد أصابه القلق ٠ كأنما لدغه ثعبان ٠

ظل الكردى واقفا فى الصالة ٠ أحس بالرضاء لهذه النكتة ٠ بدا له انه لم يأت هنا منذ سنوات ٠ ورغم انه لم يتغير شىء فى الغرفة ٠ المائدة والمقاعد فى نفس أماكنها ٠ حتى الست أمينة التى بدت كأنها لم تتحرك من مكانها منذ ليلة الحادث المشئوم حين غزت الشرطة منزلها ٠ رآها الكردى فى الظلام متكومة فوق الأريكة ٠ أسندت يدها على خدها ٠ وبدت كأنها تستحق الرثاء ٠

— اقترب منها ـ وقال بوقار :

— تحياتي يا امرأة · لا تقلقي فقد جئت لادافع عنك ·

رأته يدخل ويكلم زايد · لكن بدا أنها لم تعد تهتم بهـذه الضجة · قالت وهي تنظر اليه كأنه شبح :

— هل أنت مجنون لتجيء هنا ؟ لقد منعوني من استقبال زبائن · هل تريدني ان أموت ؟

— لست هنا كزبون يا امرأة · لقد جئت لرؤية خطيبتي ·

— خطيبته ابطلوا هذا واسمعوا ذاك ·

— أجل خطيبتي : اذا كنت لا تعرفين فانني أخبرك ·

تنهدت الست أمينة وسكتت · لقد اعتادت الا تتعامل مع المجانين منذ طفولتها · وبدا لها ان الكردي قد فقد صوابه · كأنما لم يعد يكفيها غباءاته · سألته بصوت أجش ·

— ومتى حفل الزفاف ؟

— قريبا جدا · جئت أعلن عليها نبأ سارا ·

— حسنا اجلس فانا أود ان اكلمك ·

أخذ الكردي مقعدا وجلس قريبا من الأريكة ·

— ماذا لديك لتقول ·

بدا أن الست امينة تخرج من سباتها لاول مرة · تحركت فوق أريكتها · فرغم انها تخشى الشرطة الا أن زيارة الكردي قد ملأتها بالسعادة · لقد وجدت أخيرا شخصا يمكنه ان يلحظ روحها الميتة · فهذا الموقف المأساوي في حاجة الى من اثق فيهم · وليس أمامها أحد توليه ثقتها · فالبنات غبيات ومشغولات بالبكاء حاولت ان تحدث زايد عن متاعبها لكن بدا ان الخادم خائف من الشرطة ·

ويود أن يرحل لقد جاء الكردي في موعده : فسوف تموت بعد يوم أو يومين من الاختناق ·

— هانت ترى ماذا حل بي يابني ؟ بالله ماذا أفعل ؟

قال الكردي : ولا يهمك ·

— كيف · هل ترى أن هذا أقل أهمية · انها جريمة قتل في بيتي ·

— يحدث هذا في أحسن البيوت · صدقيني · انت تلبسين الامر أهمية لا داعي لها ·

— ليسمع الله منك يابني ؟ أشعر كأنني أصبحت عجوزا ·

ضحك الكردي ساخرا : أنت · عجوز ·

— أسكت · فانا في سن امك ·

لم تكن احتجاجات هذه المرة بل اعتراض · والكردي يعرف ذلك وهو يراها ممددة فوق الأريكة متبرة · فكبرت في رأسه · اما الست أمينة فانها تفكر في شيء آخر · في ذلك الحوار الذي دار بلغة أجنبية في تلك الليلة المشهورة بين الكردي وضابط الشرطة ·

مالت نحو الأمام · أمسكت ذراع الشاب وجذبته اليها :

— انظر الي وقل الحقيقة ·

سأل الكردي وقد أصابه القلق من طريقتها : ماذا تودين أن تعرفي ؟

هل صدقت المرأة فعلا ·

— قل لي · ماذا قال لك باللغة الانجليزية ؟

ـ من يا امرأة ؟

ـ ضابط الشرطة ، الذى كلمك بالانجليزية ، لم افهم شيئا ، أعرف انه كان بالانجليزية لست غبية ، فانا أعرف اللغات ،

ـ حديث خاص وليس عن الجريمة ،

ـ هل انت متأكد ألم يكلمك عنى ؟

ـ ولا كلمة ، بشرفى ، التزمى الهدوء ،

ـ لقد أذانى ، ماذا فعلت لهذا الرجل ؟ لماذا يعاملنى هكذا ؟ هل أبدو قاتلة ؟

ـ مهنته اخافة الناس ، وأنا أيضا ، لقد حاول ان يخيفنى ، ولكننى أكررها عليك ، فالأمر ليس مهما للغاية ،

ـ أود أن أصدقك ،

فكرت لحظة ، قال مبتسما :

ـ أعتقد هذا ،

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لن يلزمنى وقت طويل كى اعرف اى نوع من الرجال هو ، ليحفظنى الله ،

تراجع الكردى فى مقعده وانفجر ضاحكا :

ـ حقا ؟

ردت الست أمينة : كيف لم تعرف ، بعينيه الرقيقتين لاحظت ذلك ، وكأنه سيقبلك على شفتيك ،

قال الكردى : أشك فى ذلك ،

لم يفت الكردى انها قد كرهت نور الدين منذ الوهلة الأولى ، كيف فكرت فى هذا الأمر المخزى وهو الذى يسخر من السلطة ، قالت :

ـ طالما انك رقيق معه ، حاول أن تغازله ،

ـ ماذا تقولين يا امرأة ، فانا أكرهه كرها شـــديدا ، من تتصورينى ، لست وغدا كما تعتقدين ،

ـ لا تفعل هذا يا صغيرى ! تريد ان تحطمنى ، انظر اى حزن يغلف البيت ، وهؤلاء البنات اللائى يقضين أوقاتهن نائمات ، وقد حل النحس عليهن ، كيف اجعلهن يعدن لتذوق العمل ثانية ،

قال الكردى : جئت لانقذك ، فلا شىء يمنعنى ،

ثم قام ،

ـ اتركك الآن ، تحياتى ، هل تنام نايلة فى حجرتها ؟

ـ نعم ، ألم تسمع ، قلت لك انهن نائمات ، لا يتصورن ان أحدا سيطرق بابنا ،

انا وحدى هنا حاول الا يراك أحد وانت تخرج ، يبدو ان هناك مخبرا يقف أمام المنزل ،

قال الكردى واعدا : لا تقلقى ، سآخذ حذرى ،

بدت حجرة نايلة مثل بقية غرف البنات مشغولة بهن ، وفى كل مرة يعبر الكردى العتبة يحس بحزن شديد ، نوع من الهلع الشديد ، يرجع هذا الاحساس المعقد لرائحة الأدوية التى تنطلق من الغرفة ، هذه الأدوية المخبأة فى الدولاب ذى المرآة حتى لا ينفر الزبائن ، لا يمكن ان يربطهم فى افكاره ، لقد عرف منهم مرض عشيقته ، والمرض ينخر فى نايلة حيث لا تظهر أى جروح ظاهرية ،

ولا يمثل بالنسبة له سوى نوع من الشفقة فى الواقع فان هــذه الروائح تجعله فى وضع مربك . فيشعر كأنه فى غرفة مرضى . ويثير هذا الاشمئزاز . لقد جاء بدافع ممارسة الحب وليس بدافع الشفقة .

انقبض قلبه وتملكه احساس مهيب وهو يرى الفتاة ممددة فوق السرير . بدا وجهها شاحبا مكسوا بحزن غريب . لاهثة الأنفاس . تعرف عليها الكردى بصعوبة وخلال لحظة نسى رغبته ولم يفكر سوى فى انقاذها من موت محقق ومصير يلقى نفسه فى طريقها .

اقترب منها وناداها :

ــ حبيبتى .

فتحت نايلة عينيها ونظرت اليه بدهشة :

ــ أنت ؟!

ــ اجل يا حبيبتى . كيف حالك ؟

ــ منذ متى وانت قلق على صحتى ؟

أحست بالمهانة . كأنهــا تود ان تظل هادئة فى حديثها . اشارت انه لا يستطيع شيئا بالنسبة لها .

ــ لم استطع ان آتى قبل ذلك . الا تفهمين أن المنزل مراقب من الشرطة ؟

ــ اذن فالشرطة تخيفك الآن : كنت أتصور انك يمكن ان تخترق النيران لأجلى .

ــ حقا يا عزيزتى . ولكن لا يتعلق الأمر بالشرطة . الحقيقة اننى كنت مشغولا بأشياء أخرى . يجب أن أخرج من هنا بسرعة . لقد قررت الا تستمرى فى هذا النمط من الحياة .

ــ قررت . حسنا . دعنى أقول لك انها حياتى . ولا أريد شيئا آخر .

ــ افهمينى . اود ان أراك سعيدة .

ــ يا الهى . كيف أعتمد عليك فى أن تجعلنى سعيدة ؟ فدخلك الصغير فى الوزارة لا يمكنه أن يجعل قطا سعيدا .

ــ سوف اكسب عما قريب الكثير من المال فى صفقة هامة . صدقينى .

لم تكن تصدق كلمة واحدة مما يقول . فهو أقل أهمية . المهم بالنسبة له أن يخمد غضب نايلة بكذبات ملفقة وتصدقها . فهى لا تطلب سوى أن تصدقه . تركت نفسها تستمع لكلمات حبيبها المنمقة . هذا الحب الرائع الذى تكنه للكردى يجعلها تشعر بالفخر . فهو يختلف عن كل الرجال الذين قابلتهم فى بيت الست امينة . رغم انه يتصرف كالصعاليك . الا أنه يسحرها بوضعه الاجتماعى فالكردى موظف حكومة . ويمثل جزءا من طبقة عالية من المجتمع . يخاف على مكانته . لم تفسر نايلة هذا الاحساس الغريب الذى يبدو ثقيلا على الشاب . فى أول الأمر اعتقدت ان مرضها سوف يبعده عنها ولكن على العكس . فقد دهشت وهو يقترب منهــا أكثر . جعلها هذا الموقف فى أمر حرج فهى تجهل ان الكردى يعتبرها ضحية لنظام اجتماعى يكرهه ، وانها سواء كانت مريضة أم سليمة فهى تمثل صورة لعالم يسير بقانون الوراثة .

فهم ــ فى صمتها ــ ان حالتها الجنونية قد مرت ، جلس على طرف السرير ، بدأ يضع رأسه عليها ويداعبها . تركته يداعب يديها . ثم وجهها وجسدها . بدت سعيدة . ولمعت عيناها ببريق حار . كم كانت لحظات البعــاد طويلة . فجأة تعلقت باحضــانه وانفجرت باكيه :

ـ ماذا بك يا عزيزتى ؟

ـ لا استطيع أن انسى المسكينة ارنبة أبدا .

قال الكردى : اهدئى ولا تفكرى . لن تعيديها بالبكاء . ليس بأيدينا شىء .

ـ اسأل من يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء . دون سبب يذكر .

ـ بالله لا أعرف . لكنه ربما رجل ذكى .

ـ من قال لك هذا ؟ ما الذكاء فى قتل فتاة مسكينة ؟

ـ على كل فلن يقبضوا عليه طالما تولى التحقيق ضابط جاهل كهذا .

ـ هل رأيته ؟ هل استجوبك مرة أخرى ؟

ـ لا . ولكن أتمنى أن أراه يوما . فلدى أشياء كثيرة سأقوله اياها .

ـ ماذا ؟ قل لى .

أطلق الكردى ابتسامته وقال :

ـ لا يتعلق الأمر بالجريمة . ولكن بأمر شخصى فيما بيننا .

ـ استحلفك الا تلق بنفسك الى التهلكة معه . أنا أعرفك .

قال محتجا : وهل أنا طفل أنا لا أخشى احدا . أما هــذا الضابط . فسافعل به ما يحلو لى فعلا . لم يعد نور الدين خصما بالنسبة له . حتى الآن . فالكردى يعتبر الجريمة كعمل شخصى بعيد تماما كأنه لم يحدث . فالمجرم موجود فى كل مكان . والبنت أرنبة لم تخنق وحدها . تساءل الكردى ان كان يعرف كل الناس

الذين يأتون الى بيت الست أمينة . وبتركيز حاول ان يتذكر كلا منهم ولكنهم كانوا بعيدين عن الاتهام فى جريمة كهذه اختفى فيها الدافــع .

ساقته افكاره الى تصفح وجوه البعض . لا . فكر أن يقبض على القاتل . لكنه لن يبلغ أبدا عنه يود ان يعرف الاسباب التى دفعته الى ذلك لعلها جريمة سياسية طالما انه لم يسرق شيئا .

ـ المهم هو ان يعرف السبب .

نظر الى وجهه فى المرآة . وتذكر الأدوية المحبوسة فى الدولاب . فادار رأسه .

ـ سوف أخلع ملابسى .

قالت نايلة : الا تفكر سوى فى ذلك ؟

امتلأ صوتها بالمرارة ، رد الكردى :

ـ أجل يا حبيبتى فيما تودين أن أفكر ؟

ـ كيف يمكنك أن تحب فتاة مريضة مثلى ؟ أنا دميمة الآن للغاية .

ـ المهم هو جمال روحك . الم تفهمى . انا احب روحك .

وكى ترضى نايلة صديقها . آثرت الصــمت . ولم تحــاول مناقشته . فهى لم تعرف أبدا حقيقة ودافع حبه المزعوم . أى أفاق هو ، يزعم أنه يحب روحها . وهذا سبب قوى . رأته يخلع ملابسه ويضعها منظمة فوق المقعد . وذلك الغبى . من يصدقه . ودت أن تضحك . لكنها آثرت الصمت . لم تكف عن التحديق فيـه

بعينين يملاهما الأسى · انها تفكر فى القاتل · لقد تولد الحزن منذ تلك اللحظة المأساوية التى سمعت فيها صراخ الست امينة ونواح البنت وحيدة فى غرفتها · فهمت معنى الأصوات · تملكها اكتئاب شديد · وفيما بعد بدأت ترى تقاربا بين الجريمة ووجود الكردى فى ذلك اليوم فى البيت · هذا التقارب البسيط وموقف الشاب أثناء استجواب الشرطة يكفى لخلق شك لا يحتمل · فهل هو القاتل ؟

أثناء الأيام الثلاثة التى لم تر فيها نايلة صديقها حاولت ان تتخلص بدون جدوى من هذه الوســاوس المرعبة · ولكن كتمان الكردى لغموض وعلاقتــه بضابط التحقيق يقويان من شكوكها · ودت أن تسأله · لكنها لم تجرؤ ·

الآن · يقف الكردى · رغم أنه بقى وقورا · فقد نسى ان يخلع طربوشه ، فجأة أدرك ذلك فخلعه ووضعه فوق المقعد على ملابسه المنظمة · ثم تمدد قريبــا من الفتاة وضمها الى صدره كأنه يحتمى بها ·

ـ قل لى · الم يكن أنت ؟

ـ من أنا يا فتاة ؟

ـ الذى قتلها ··

ـ ماذا تقولين · هل جننت ؟

ـ فكرت فى هذه الأيام انه أنت · انا خائفة · أليس أنت ؟

ـ بالتأكيد لست أنا · من ادعى عليك هذا ؟ لم أقتل أحدا ·

فكر وهو يضع رأس نايلة على كتفه فى انها تشك أنه مدبر الجريمة ·

أحس بالذعر وطرأت على ذهنه فكرة جنونية · فلو جعلها تصدق انه قاتل العاهرة الصغيرة · فلماذا يخاطر ؟ انها فرصة غير طيبة أن يتدثر بمجد عاطفى فى يوم مكفهر ·

أحس بالسعادة لفكرته · فكر ان يمارس الحب · ودون ان يتحرك بدأ فى مداعبة اذنها وهو يهمس لها ببعض الكلمات البذيئة ·

ـ عندما أراد أن يمتلكها · نظرت نايلة فى عينيه وقالت :

ـ اقسم لى أنه ليس انت ·

ـ أقسم لك · هيا دعينا فى هدوء ، ولا تتكلمى عن هذا ·

لكن فى لهجته رنة شك · لعلها لا تصدق · شعرت نايلة ان دماءها قد بدأت تتثلج فى عروقها · وظلت لفترة طويلة باردة لا تتحرك بين ذراعيه ·

(٧)

جعلته قذارة المكان أكثر احساسا بالدونية . فى محل الحلوانى المثير للتقزز . يقع فى مكان بعيد من احد الأحياء الشعبية . فى منطقة يؤمها البشر . والكلاب الضالة . هذا المكان نموذجى لمثل هذه المقابلات التى تهم نور الدين . اختاره دونا عن الأماكن الأخرى كى يخفى علاقاته السرية . هنا تقل المخاطرة . حقا ان أيا من هؤلاء الأصدقاء الشبان لا يشاركه أفكاره . فهم لا يكونون سعداء وحين يدعوهم الى هذا المكان الذى يصر نور الدين أن يتناول الحلوى فيه . يقدمون حلوى غير شهية خاوية الطعم . يتساءلون اذا كان نور الدين لا يود ان يكبح جماحهم . يشعر نور الدين نفسه بعدم ارتياح فى هذا المكان ويخفى الظروف التى تجبره أن يخفى نفسه كأنه متآمر . كيف له أن يتصرف ؟ خزى ضابط الشرطة ليس مصنوعا كى يسهل له الأشياء ، ففى أى مكان يذهب يشعر بالعيون مركزة عليه . ويحس أنه يتمشى بدون ملابس .

وكى يأخذ حذره أكثر ، اختـار نور الدين مائدة فى نهاية المحل ، يجلس أمام سمير الذى آثر الصمت ، فهو لم يفتح فمـه منذ أن جاء ، يوجد فوق المائدة ، طبقان يحتوى كل منهما على قطعة من حلوى رديئة الصنع ، لم يلمسها أى منهما ، فهو لم يطلب الحلوى الا كشكل اجرائى ، ربما لانه جوعان ، تكلم نور الدين كى يحطم هذا الصمت :

— الا تأكل ؟

لقد اخطأ ، أبدى سمير اشمئزازه ، وهو ينظر الى نور الدين بازدراء :

— أتود أن آكل هذا فعلا يا سيدى ، من تتصورنى ؟

— معذرة ، يا عزيزى سمير ، لم أفكر جيدا ، فأرجـوك الا تلمسها .

— بشرفى ، لقد تعمدت هذا .

— ماذا ؟

— ان تدعونى الى مكان قذر كهذا .

— لقد شرحت لك اننى لا استطيع ان أذهب الى اى مكان آخر حتى أوفر على نفسى مقابلة أشخاص أعرفهم .

— لماذا ؟ هل تخجل منى ؟

— ليس هكذا ، تعرف جيدا يا سمير ، افهم انه من الصعب — مثلك — أن أجلس هنا لكن الظروف تحتم .

— أتسمى هذه ظروفا ؟

— أرجوك ، هدىء نفسك .

استعاد سمير وجهه المستاء ، ولم يتكلم ، ملأ نـور الدين الاحساس بالاشمئزاز ، شاب فى الثامنة عشر ، ذو ملامح جميلة ، لا يرتدى طربوشا يرتدى قميصا ذا ياقة مفتوحة وسترة رمادية لا يرتديها سوى أبناء الطبقة الميسرة ، لا يتشبه بالنساء مثل أقرانه، فهو بعيد ان يكون احدهم ، الرباط الذى يربطه بنور الدين هـو الكراهية العامة ، فسمير يكره فى نور الدين المبادىء الأخلاقية التى يعانى منها فى أسرته الكبيرة ، ويبدو ضابط الشرطة الخير مجسدا أما أبوه المدعى العام — هذا القاتل الشرس — فان نور الدين أول من يكرهه ، فهو يستغل منصبه فى اشباع ساديته وكلما قابل ابنه نور الدين زاد احساسه بالكراهية .

منذ بضعة أشهر ، هجر سمير الجامعة التى يدرس فيهـا القانون ، وقرر أن يدرس الحياة بعيدا عن الكتب ، فى الشوارع والأزقة .

لا يعرف نور الدين لماذا وافق الشاب ان يقابله ، ظل الأمر بالنسبة له سرا غامضا ، حتى الآن لم ينجح فى ان يكسب ثقته ، فهو بالغ الذكاء ، يشعر أنه يسخر منه ، وانه لم يأت الا كى يثير استفزازه ، قال وهو يتصنع الغضب :

— معذرة ، أعرف أن هذا المكان لا يليق بك ، وأنا أيضـا ، يمكننا أن نذهب الى شقتى وهناك نستطيع أن نتحدث .

— نتحدث ، يا لها من مصيدة يا سيدى الضـابط ، من تتصورنى طفلا ؟

— أنت تهيننى يا سمير ، ماذا تخشى ؟

رد الشاب وهو ينظر الى نور الدين بكراهية :

— لا اخشى شيئا ، ولن أذهب الى منزلك .

علا الشحوب وجه نور الدين وقد صدمته النظرة الكارهة . يحاول أن يفهم شيئا . لم يفكر ان يقابل هذا الشاب اللماح . فى كل لحظة ينظر الى الباب خشية أن يدخل احد معارفه . لا يمكن لاحدهم أن يأتى هنا . انهما وحدهما بعيدين عن كل العالم . يهربان من كل الأنظار . حتى صاحب المحل قد أدار لهما ظهره وانشغل بطرد الذباب . أما أغلب زبائنه فياكلون الحلوى وهم واقفون فى الحارة يلفها البعض فى ورق جرائد . قوم صامتون . يبدو كأن معجزة تدفعهم للحياة . أغلق نور الدين عينيه وكأنه لا يصدق الواقع . وهو ينظر الى الشباب الذى يجلس أمامه ويتنهد .

ترك الحلوانى بعض الأطباق التى حطت عليها مجموعات الذباب . حاول سمير أن يصطادها بلا جدوى . تعود للطيران مرة أخرى . تحط على وجهه . دخلت احداها فى عينيه .

قال غاضبا :

ـ سوف يقتلنى هذا الذباب اللعين . هيا بنا .

ـ من فضلك ابعد لحظة .

ـ لماذا ؟

ـ الست سعيدا بصحبتى ؟

ابتسم سمير ساخرا :

ـ كيف . هذا من دواعى الشرف لى . لكن هناك شيئا يضايقنى .

ـ ماذا ؟

ـ أود أن أقول انه لا يمكن لنا ان نتفاهم .

لم يجد نور الدين شيئا يرد به . يملؤه هذا الرد بالخوف .

يتمتع سمير بكبرياء غريب . يبدو مشدوها بنظرة سمير الكارهة . انه صغير للغاية كى يحمل كل هذه الكراهية . هل سمير ثورى ؟

هل هو أحد الشباب الذين يحلمون بالهجوم على الحكومة ؟ وتراهم الشرطة حاقدين ؟ رفع نور الدين يده كأنما تذكر منصبه .

لكن هذا لم يدم طويلا . بدأ العرق يتصبب على جبينه . وتخلصت ملامحه من الاذلال . فهم فجأة انه لا يمكن ان يظلا صامتين طويلا . يجب أن يقول شيئا ان يرتجل أى كلام :

ـ عزيزى سمير .

ـ أجل .

ـ أعدك . أن أصحبك فى المرة القادمة الى مكان فخم فى الحى الافرنجى .

ـ لقد اصبح سيدى الضابط أكثر تطورا .

ـ لكن هناك شيئا من الأفضل ان تفعله .

ـ ما هو ؟

ـ أن تغطى رأسك فليس من اللائق أن تسير بلا طربوش .

ـ وعنى أقول لك أننى أرتدى ما يعجبنى . ثم اننى أمتلك طربوشا .

ـ عدنى وسأقدم لك واحدا .

فكر نور الدين ان مثل هذا الشاب حين سيرتدى طربوشا سيكون أكثر احتراما . تخيل ان سلوك سمير ملىء بحيوية الشباب .

ـ طربوش آه أنا أود سيارة . لماذا لا تقدم لى سيارة ؟

قال نور الدين : هذا فوق مقدرتى .

ـ اهدأ فانا أمزح · ماذا أفعل بسيارة · وحتى لا أخفى عليك سرا · فأبى النبيل يمتلك سيارة ولم أركبها قط · أود أن أموت ·

ـ لماذا ؟

ـ لن أخبرك · فلن يمكنك أن تفهم ·

من جديد ران الصمت بينهما · بينما تكاثر الذبـاب حولهما أكثر من ذى قبل · لم يتنهد نور الدين · فكر بسرعة أن الشباب بهذه الكلمات الأخيرة يبدو كأنه يدينه بتهمة عدم الفهم ·

فكر أن يطرحه أرضا · يعنى هذا انه غير أهل للثقة · نوع من الاهانة · لا يمكن أن يتركه دون عقاب ·

تنهد بعمق وهو ينظر مرة أخرى الى باب المحل · ثـم قال مرتعشا كأنه يتحدث حول يوم القيامة :

كيف يمكنك أن تقول انى غير قادر على الفهم · انت تتحداني يا عزيزى سمير · أحب أن أعرف ماذا يهمك · وسأكون سعيدا أن أخفف عنك أحزانك · أتمنى الا تشك فى ·

ـ انت لطيف يا عزيزى الضابط · وأنا لا أعانى من متاعب ·

ـ اذن ماذا يجعلك كثير المرارة ؟ معذرة · أعتقد ان علاقتك بأبيك ليست على ما يرام ·

ـ لا تكلمنى عن هذا الرجل · فانا لا أحبه ·

شعر نور الدين بأنه قد مس وتره · فهو لم يخدع · بكل ما يمكن أن يقرأه فى سمير ، هو الكراهية ·

ـ الى هذا الحد يا سمير · انت تدهشنى · كيف يمكن أن تكره أباك الى هذا الحد ؟

ـ هل تود أن تعرف ؟ حسنا · الأمر بالغ البساطة · لأن ابى من طرازك ·

سأل نور الدين شاحبا : ماذا تعنى ؟

ـ لا · لا يتعلق بما تفكر · فأبى رجل يحب النساء ، ويشبهك فى أشياء عديدة فى حقده ·

ـ لا أفهم ·

ـ قلت لك لن تفهم · لكن هذا ليس مهما بالنسبة لى ·

انها أول مرة يتكلم عن أبيه الى شخص ما · وخاصـة هـذا الضابط ، ليس هذا الحقد فقط ناحية أبيه ولكن لكل أبناء الطبقـة الراقية · أليس نور الدين أحدهما · مرتزقة يدافع عن هؤلاء القتلة ، الأكثر شراسة من ثعابين الصحراء · لقد نما سمير بين أخوانه الكبار الذين ساروا فى ركاب شرف أبيهم · أما هو فلم يذهب الا قليلا أملا فى مستقبل أفضل وأسهل · ألم يود أن يكون محاميا مشهورا ؟ انه يشعر بالغربة فى هذا الوسط المنحط ، القذر ، ولم تستمر رغبته أن يصبح رجلا مرموقا سوى فترة قصيرة · فقد استيقظ يوما وشعر بالغثيان ·

شعر بازدراء لا نهاية له تجاه نفسه · ولكن أليس هذا الازدراء موقفا سلبيا لم يقده الى شىء · فالألم الذى يشعر به يتزلق من شبابه محاطا بهذا العفن الأبدى · يزيد من كراهيته · فهو يرى أن عليه أن يحيا حياة الرجال · لأن أمامه مهمة عظمى ·

لقد حانت اللحظة كى يتصرف · يتردد أحيـانا فى اختيار ضحيته الأولى · فيمن سيبدأ ؟

ـ أعتقد انى سوف أقتله يوما ·

ـ من ؟

ـ أبى أتعرف ان هذا يسليني كثيرا . قل لى سيدى الضابط : هل يمكنك ان تفعل ذلك لأجل خاطرى ؟

اخفض نور الدين رأسه . وبدا قلبه يدق . قال متنهدا :

ـ أريد ....

ـ يا الهى . لقد فقدت عقلك .

ـ بدات افكار ما تشع فى رأسه . يبدو كانه ينزلق فى بئر عميق . يصرخ أحيانا طفل فى الخارج بصوت قبيح . ينبح ككلب بصوت خائر . تمر عربة ترام فى الممر وهى تطلق رنينا أشـــبه بصفارة الانذار . كل هذه الأصوات تنخر فيه كانها ضباب قادم من عالم غريب بعيد يرفع رأسه كانه يغرق . ثم شـــد ياقته وثبت ناظريه على حائط الحانوت فى ركن علقت عليه لوحة تصور حفـل زفاف شعبى . يقف العريس محاطا بصديقين يحملان باقتين مـن الزهور ، ويقف الموسيقيون فى زيهم الرسمى . ومن الخلف يتكدس المدعوون . لقد بهتت الوان الصورة . لكن خط الرسم لا يزال يحتفظ بعفويته .

رمق الشاب نور الدين وقال وهو يبتسم :

ـ هل وصلت العبقرية الى هذا الحد ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ يجب ان تتزوج يا سيدى الضابط .

نظر الضابط اليه بحدة . وهو يفكر انه لا يمكن أن يحتمل مقاطعة سمير . لكن ليس عليه ان يصل الى هذا الحد . عليه أن يهرب من هذا المكان الملعون . يشعر أن الكل بامر ضده . عليه أن يكون شجاعا ويساله :

ـ ألن تأت لتناول العشاء معى اليوم ؟

رد سمير : لا .

ـ الا تود رؤيتى ؟

ـ اذا كان الأمر يتعلق برؤيتك فلنتناول العشاء فى مطعم .

ضحك سمير ، نظر الحلوانى وقد ملأت الدهشة عينيه . هنا دخل اثنان أو ثلاثة من الزبائن الى المحل . انها فضيحة . وذلك ما يخشاه نور الدين .

ـ اهدأ . من فضلك . فانا لا أبغى فضائح .

قال سمير : لست موافقا .

احتج نور الدين : اعتقد أن هناك سوء فهم فيما بيننا .

قام ـ عدل طربوشه . وبدا أكثر جدية :

ـ معذرة . أنا مضطر للذهاب . فوظيفتى تناديني . سأراك مرة أخرى . تحياتى . بمنتهى الكبرياء . وبينما ترتعد أهدابه أمام الحلوانى الذى بدا مبهورا . ثم خرج من المحل انه يسرع الآن ، اخترق الحارات المليئة بالاكشاك المصنوعة من الخشب والصفيح . سلك طريقه . فى هذا الحى لا يثير زيه كضابط شرطة مشاعر أحد . فكى يخشى شخص رجال الشرطة عليه أن يكون لديه شيء يخاف فقده . وهنا لا أحد يملك شيئا . فالفقر فى كل مكان . انه المكان الوحيد فى أنحاء البسيطة الذى لا يمكن للسلطة أن تكون محترمة . يعرف نور الدين طبائع سكان هذه المنطقة . يعرف أنه لا يمكن لأحد ان يخرجهم من نومهم الأبدى . لا يحملون حقدا فى قلوبهم . ولا كراهية . فقط هناك احتقار خفى تجاه القوة التى يمثلها . يقال انهم يجهلون ان هناك حكومة وشرطة . أو حضارة متقدمة . هذه الأرواح التى تجرح نور الدين فى أعماقه . وتكشف

له عن مدى ضعف قوته • لا يمكن ان يمنع تعصبهم ورفضهم • كأنما الأمر اهانة شخصية يشعر فى كل خطـوة انهم يخفـــون وجوههم • يتنهد كأنه فريسة • ويشعر انه من الغباء ان يجرى •ابطا خطاه • هؤلاء الصبية يثيرون الخوف فى قلبه • ويحطمون أعصابه • قرر ان يسير على مهل • وأن ينظر أمامه • كأنه رجـل يفكر فى خطة سينفذها ، لكن هـذا السلوك الذى تصور كبرياؤه قد خيب ظنه • فبينما ينظر يمينه ، سار فوق بركة مياه • فانزلق وسقط أرضا • استند على كشك وهو يفحص حذاءه وأسفل بنطلونه الذى امتلاء بالوحل أحس بالخجل وأنه فقد كبرياءه • لم يتحرك لحظة • لا يجرؤ أن يرفع رأسه ، أى مشهد مضحك قدمه لهؤلاء المتفرجين • تسلط عليه غضب وهو يلعن بصوت خفيض • اعتدل • انتظر أن يضحكوا • لكن أحدا لم يضحك • ربما أن هذا من لون السخرية طرفهم • تذكر احتداد سمير • انه لا يقارن بهذه النظرات التى تتركز عليه كأنها تنزع عنه وقاره وتعريه من الزى الذى يكسبه اهمية • يمكنه ان يدافع عن نفسه ضد حقد سمير • وضد كبريائه • ولكنه لا يعرف كيف يرد على هذه النظرات المليئة بالقسوة والحقد • لا يبدو ـ فيهم ـ شىء يدل على التمرد والكراهية • ينظرون اليه كأنه مخلوق غريب • لماذا لا يقذفونه بالحجارة ؟ انتظر منهم بادرة • لكن أحدا لم يتحرك • دائما هذا السكون والغموض • تقف الآن وسط الحارة فتاة فى السادسة من عمرها • ترفع طرف ثوبها • ادار لها رأسه وأسرع •

تساءل عن معنى هذا المشهد الهذيانى ، بدت له حركة الفتاة كأنها تنتمى الى عالم وحشى انه مشهد خيالى • أخرجه من الركام والعفونة : ملعون أنا • هل حكم على ان أعيش بقية حياتى وسط هؤلاء الرعاع •• شعر بمرارة تسد حلقه وهو يفكر فى الدور الذى سيلعبه • أية عدالة ساقته هنا • هذا المكان الميت • عليه أن يسجنهم

جميعا • ظل نور الدين يتوهم • يعرف انهم أكثر قوة • فقد مر معهم بتجارب سابقة • يرفضون أن يساهموا فى بناء الحضـــارة • ولا توجد قوة يمكن أن تجبرهم على ذلك •

تذكر أنه يسرع الآن كى يحقق فى جريمة • ضحك ساخرا • هذه الجريمة التى تتعلق بمقتل عاهرة شابة قد سببت له الكثير من الضغوط • لقد تصورها جريمة بسيطة • وعليه أن يوكل بمهمة أكثر أهمية • لكن عليه أيضا ان يعثر على هذا القاتل الذى ينتمى الى طبقة راقية •

تنهد • لقد خرج أخيرا من هذا السعير • ليست هذه حضارة وشىء يمكنه احتماله ها هو فى شارع • شارع حقيقى به سيارات وترام • ملىء بالناس الذين يحسون انهم أحياء • يملأون شرفات المقاهى • يتحدثون وهم يشعرون بالتفاؤل • كأنهم لا يشـــكون من شىء وكأنما الحياة نكتة جميلة • من جديد أحس نور الدين بالمرارة • لماذا يكون هو الوحيد الذى يرى الرعب ؟ فهؤلاء يعيشون كأنهم فى عيد • يريدهم أن يعوا مبادىء عالم يعيش فى أسى • بينما لا يعرفون أى نوع من القهر •

كان الرد سهلا للغاية فهؤلاء القوم لا يخشون شيئا لأن ليس لديهم ما يخشون ، لكن نور الدين رفض أن يقتنع بهذه الفكرة • فهذا اثبات أكيد للفوضوية رأى مخبرا يجلس على شرفة مقهى • اتجه نحوه • قام المخبر من مقعده :

ـ تحياتى لسعادتك •

ـ انه فى الأربعين من عمره • يرتدى معطفا أسود • وحذاء طويلا ذا أزرار صفراء لف شالا فوق رقبته النحيفة • وقد تدلى طرفاه كأنما جناحا غراب • انه أعور • لكن عينه تساوى ثقلها ذهبا • فقد فقدها فى احدى المعارك • سأله نور الدين :

ـ هل نجحت فى العثور عليه ؟

ـ يجب أن اقر ان هذا عمل صعب · ومع ذلك استطعت أن أرصده · فابن العاهرة يغير مكانه كل ساعتين تقريبا ·

قال نور الدين متعصبا :

ـ وأين هو الآن ؟

ـ فى رقم ١٧ فى هذا الشارع ·

ـ انه فندق · ما اسمه ؟ ·

ـ لا أعرف · يسكن فى الطابق الأول · الغرفة أمام السلم ·

ـ يمكنك أن تذهب · لست فى حاجة اليك ·

ـ تحت أمرك يا سعادة البيك ·

ترك نور الدين الشرطى الأعور وعبر الطريق · سار ببطء فوق الرصيف بجوار البيوت التى تحمل أرقاما فردية · وعلى بعد خطوات وقف أمام رقم ١٧ · تأمل الواجهة لحظة · يتطلع اليها من الشمال الى اليمين كأنه يخشى أن يراه أحد يدخل هذا الفندق المتواضع · فتح الباب ودخل الممر المظلم · لم يأت عامل الفندق للاقاته بدا كأنه خاو منذ سنوات · صعد نور الدين السلم تدفعه غريزته · الى أن وصل الطابق الأول · رأى فى الظلام بابا فبدأ يطرق عليه بكامل قبضته ·

لم يرد أحد على طرقاته العصبية · أصاخ نور الدين السمع · لم يتحرك أحد فى الداخل · ودون ان ينتظر ادار قبضته · وفتح الباب · ثم دخل الغرفة التى لم يكن بها ضوء كاف ·· يسود الظلام عدا شعاع من الضوء يتسرب من النافذة المغلقة الانطباع الأول الذى أحسه نور الدين أن الغرفة خاوية · وشيئا فشيئا

بدأت عيناه تعتادان الظلام · استطاع ان يرى السرير الذى تمدد فوقه جسد آدمى متدثر بغطاء ·

ـ هيه استيقظ ·

لم يتحرك الجسد المتمدد تحت الغطاء كأنه جثة · بدأ نور الدين يحس بالعصبية وهو يعتقد ان الرجل قد مات · اقترب من السرير بحذر ورفع الغطاء فرأى الرجل عاريا · ويدق قلبه من الخوف هلعا ·

همس نور الدين :

ـ ليحفظنا الله ·

هنا شعر ان زلزالا أصاب النائم ·

استيقظ وهو يدعك عينيه ويتثاءب · سأله :

ـ من أنت ؟

صرخ نور الدين وهو يود ان يحطم كل مقاومة الرجل النائم :

ـ شرطة ·

لكن هذه الكلمة بالغة الأهمية لشاغل السرير · فهو يود أن يعود ثانية للنوم :

ـ يمكنك ان تبحث فى مكان آخر · فليست هناك قطعة حشيش واحدة معى ·

قال نور الدين : ليس الأمر كما تتصور · قم أريد أن أكلمك ·

هتف يحيى وقد استيقظ :

ـ تكلمنى · ياآلهى · سيدى الضابط هذا من دواعى شرفى : هل أفيدك فى شىء ·

ـ جئت اليك فيما يتعلق بجريمة قتل .

ـ قتل ؟! يا نهار أسود .

ـ نهار اسود عليك .

ازاح يحيى الغطاء كاملا . وجلس على السرير . وقد ثنى ساقيه . بدا وجهه بارز العظام شارد النظرات . أشبه بفقراء الهنود أنحله الصوم والتقشف . كرر :

ـ قتل . ماذا فعلت لأقتل ؟

ـ سأخبرك . لكن رد على أولا : هل تعرف ان بنتا من بنات منزل الست أمينة قد خنقت منذ عدة أيام .

قال يحيى : لقد عرفت ذلك

ـ يبدو انك مألوف بالنسبة للمنزل .

ـ فعلا .

ـ اذن تعرف أرنبة .

ـ بالطبع . فهى أجملهن .

ـ حسنا . فنحن متفقان . يمكنك أن تخبرنى أين كنت ساعة الجريمة ؟

لم يترك ليحيى وقتا ليفكر . لم يسأل أين كان ساعة الجريمة واثقا أنه لن يخدعه . رد بطريقة عفوية :

ـ كنت نائما يا سعادة البك .

ـ أين كنت تنام ؟

ـ لا اعرف . فانا أنام فى كل مكان .

ـ هيا يابن الكلب ؟ الا تعرف شيئا عن هذه الحكاية ؟

ـ أبدا . بشرفى . لا أعرف شيئا . يمكننى أن اعطيك بعض المعلومات عن تناول المخدرات لكن جريمة قتل . فهذا ليس من شأنى .

ـ دعنى أخبرك أنك المشبوه رقم واحد .

ـ كنت نائما . كيف يمكن لضابط ذكى مثل سعادتك أن يقترف خطأ هكذا ؟

زمجر نور الدين : دعك من هذه السخافات . سأخبرك على الكلام .

وضع في حسبانه انه اكتشف السبب . في أحد هذه الاماكن التى يتم فيها استجوابه . ورغم التهديد الذى يحيطه . يتنفس رائحة الغرفة القذرة . ألقى نظرة نحو النافذة المغلقة . ود ان يفتحها . لكنه خاف ان يدخل ضوء النهار . فالظلام يساعده . ويمنع أن يلحظ يحيى ارتباكه . من الشارع صعدت أصوات العربات . صياح الحوذية وأجراس الترام أعطته هذه المسيرة البطيئة قوة الارادة . سار بضع خطوات باحثا عن قطعة أثاث يستند اليها . جلس على طرف مائدة . سوف تفشل هذه الزيارة اذا لم يغير خطته . فالصعوبة بالنسبة لاستجواب يحيى انه شاب يسخر من كل شىء درس القانون ويتعاطى المخدر . وله علاقات عامة ويعرف الكثير من مساوىء الأحياء الشعبية . لم يصدق نور الدين حدسه . لقد حاول ان يجد دليلا يقوده الى القاتل الحقيقى . يعرف أن هذا الماثل أمامه لا يمكن ان يمارس العنف . ولا ياخذه بجدية . يتعاطى المخدرات . لكنه لا يستطيع أن يقتل ولأن نور الدين يجهل الرذيلة التى من الصعب ان توجد فى شخص جبان كهذا .

فهل يسمح له هذا أن ياخذ الحياة بهذا الهزل ؟ كما ان هناك بشرا لا يهتمون بالفقر كثيرا .

من جديد أحس بالمرارة تغزوه . ونظر الى يحيى . لا يمكنه ان يمنع أن يجد فى هذا المشهد ما يثير الرثاء . يبدو هذا الرجل عبثيا وضد الطبيعة وتتناثر السخرية فى كل مكان . قال نور الدين :

ـ لقد انغمست فى قصة قذرة .

ـ معذرة يا سعادة البك . ولكن الدنيا أصبحت أكثر تسلية . أليس كذلك ؟

ـ ما الذى جعلك متفائلا هكذا ؟

قال يحيى : القنبلة .

ـ أى قنبلة ؟

ـ ألم تسمعهم يتحدثون عن القنبلة يا سيدى . هذا يدهشنى . انها شىء يعرفه كل الأطفال . لقد اخترعوا قنبلة قادرة على تدمير مدينة بأكملها . الا تجد هذا مسليا ؟

وماذا عليك ان تفعل ؟ بقى نور الدين صامتا لحظة . محاولا ان يفهم . فهذا الاستجواب سيكون الجنون بعينه .

ـ دعنا من هذه القنبلة الملعونة . فلن يغير من موقفك شيئا .

ـ اذا فكرت سعادتك فى خطر القنبلة قليلا . فماذا يمكن ان يخشى المرء ؟

أصبح الموقف غير محتمل . توقفت ضجة الشارع فجأة كأنما توقفت الحياة للأبد . شعر نور الدين فجأة أنه سيتقيأ وسيفرغ كل ما بمعدته . سأل يحيى :

ـ هل أنت مريض ؟ آسف لما قلت . انت تعرف حكاية

القنبلة . انها نكتة . من الصعب صناعتها كى يلقوها فوق هذا المكان . فهى غالية الثمن . صدقنى .

ـ اسكت أيها القذر . ارتد ملابسك . فسوف نخرج .

قال يحيى متوسلا : فى مثل هذه الساعة رحماك يا سعادة البك . ماذا فعلت لك ؟

ـ ارتد ملابسك يا ابن الكلب .

ـ تحت أمرك يا سعادة البك . لكن لا تدفعنى .

قفز يحيى من سريره وبحث عن ملابسه التى ألقاها فوق المقعد . ارتدى الملابس بكل حيوية . ثم فتح باب الغرفة . خرج نور الدين من الغرفة يتبعه يحيى وصلاح الى الشارع . تبادلا النظرات لحظة كأنهما يتعارفان بدا يحيى مبتهجا :

ـ هل يمكن أن أدعوك لتناول فنجان قهوة . يا سعادة البك ؟

أمسك نور الدين يحيى من ذراعه ثم سحبه بسرعة وهو ينطق من بين أسنانه :

ـ سوف أجعلك تقدمها لى فى السجن .

(٨)

أضيء وجه جوهر من ضوء الشمعة المرتجفة كاشفا عن المتعة التي يحسها . يجلس فوق المقعد الوحيد في حجرته ، وقد وضع يديه فوق جبهته . وأسند رأسه ناحية الباب الذي يفصله عن الجار . لقد مر كل ما يأمله .. تملكته الدهشة وعت روحه انه الشاهد الوحيد لتصرف شاذ . تستبد به المتعة منذ فترة طويلة ، استعاد جوهر – وهو يغلق عينيه – كل أوجه حياته . يتبادل بعض الناس الكلمات على الجانب الآخر من الحائط فيطرقون في رأسه كأن شعلة تضيء ظلمات وعيه .

لقد شغلت الحجرة المجاورة منذ أيام بمستأجرين جدد . انهما زوجان . الرجل قعيد (١) اتخذ من الشحاذة مهنة أما زوجته فامرأة فضولية قوية البدن . كأنها عمارة من عشرة أدوار . تذهب في كل صباح لتضع زوجها فوق رصيف أحد الأحياء الافرنجية ثم تعود

---

(١) الترجمة الاصلية تعني رجلا بلا ساقين أو ذراعين .

لتأخذه عندما يحل الليل · كي تعيده الى الدار · قد يقابلهما جوهر مرة على السلم · فيرى المرأة تحمل زوجها القعيد على كتفها كأنه اناء كبير ترد على تحية جوهر بصوت أجش قادر أن يجمد الدم فى العروق لشخص لديه شجاعة كافية · تبدو شرسة متعجرفة · هى أقرب الى رجل من امرأة ·

لم يصدق جوهر أذنيه · ارهفهما أكثر · وجد أنه من الصعب أن يتخيل الأمر الذى يدور فى الغرفة المجاورة · فالمرأة تقوم بدور الغيرة الأبدى بالنسبة لزوجها القعيد · سمع جوهر القعيد يدافع عن نفسه بحرارة · ضد اتهامات زوجته ويلقى عليها الاتهامات انها ساحرة تأكل الجثث · ثم بدأ يتأوه طالبا الطعام · لكن المرأة ظلت صامدة أمام نداءات بطنه · واستمرت فى اهانته وكيل السباب له ·

بلغ اعجاب جوهر مداه · لم يصدق أن هناك شيئا يمكن أن يثير دهشته · الغيرة من رجل قعيد ، حقا فان جنون النساء لا حدود له · فجوهر يعرف النساء وغباءهن الأكبر وما يسببنه فى العلاقات الانسانية · قادرات على أداء مشاهد الغيرة لحمار · حتى لو كان السبب غير مهم · بدأ يحس فى جيرانه بأشياء تسترعى الانتباه · فهذا المشهد العائلى رغم أنه غير محتمل — يفتح له بابا حول الطبائع الانسانية يا لهما من جيران · دعك يديه · وهو يبارك المصادفة العجيبة التى جاءت له · دون ان يترك غرفته · الى هذا الثنائى الغامض · الذى يعلو على كل ما يتمتع الشر من سخرية الرجل فى كل مكان · وهو شىء عالمى ولكنه تخلف عقلى أكثر من اى شىء آخر ويمكن عمله دون أى جهد · أحس جوهر بدناءة عمله · منذ سنوات طويلة · وهو يعيش على نفس الوتيرة وتلزمه فترة طويلة كى يمكن أن يحكم على تجربته : انه أثر بعد عين لقد قام بتعليم الطلبة طوال عشرين عاما كل الفلسفات الكاذبة المعبقة بالغبار · كيف أمكنه أن يأخذ الأمـور بجدية · الم يكن يفهم ما يقرأه الم تبد له هـذه

المحاضرات مليئة بالسفسطة ؟ كان الحوار غير مناسب · حاول أن يضع كل شىء فى مكانه · كل نصوص التاريخ القديم والحديث التى آل على نفسه ان يعلمها لتلاميذه مليئة بآلاف الكذبات · يمكنه أن يكذب فى التاريخ · لكن الجغرافيا · كيف يمكن أن يكذب فى الجغرافيا ، حسنا لقد توصلوا الى معرفة أسباب الزلازل · لكن المنهج يتغير فى كل عام · ويدهش جوهر أنه لم يحذر تلاميـذه يوما من هذه الكذبات كأن كل شىء يدور فى داخله · فقد اقتنع هو نفسه ان هذه الكذبات الرسمية يمكن ان تغدو حقيقة ·

لا يمكن لكل هذه الكذبات سوى ان تبلبل الحياة · وتكون النتيجة عذابا بمقاييس البشر يعرف جوهر ان هذا العذاب ليس جوهرا ميتافيزيقيا · يعرف أنه ليس مصيرا محتوما لكل البشر ولكنه ينبع من رغبة مكبلة · رغبة قوى قد تبدو واضحة وبسيطة · أما العذاب فهو يغرق فى غياهب الظلمات والفوضى · وهكذا تتضح معالم عبثية الحياة · وتحت اسم العبث يمكن أن تقترف كل الجرائم فالدنيا ليست عبثا · وان كانت مثيرة للرثاء · فهى مليئة بأسباب العنف · وعلى كبار المفسرين أن يفسروا العالم للملحدين · ليس عليهم ان يقدموا الظواهر بدون تفسير · يخافون من البديهيات ·

من ناحية أخرى فانهم يخاطرون بتفسير الأشياء بأسلوب بسيط وموضوعى · قام بعض الغاضبين السابقين بتفسير شريف ومنطقى لبعض الظواهر · وقد وجدت هذه الأشياء تأثيرها على الأجيال · ولكن لا يوجد الشجاع الذى يمكنه أن يعبر عن افكاره بوضـوح · لقد اصبح كبت الفكر هو الأسلوب الوحيد لانقـاذ الانسان من سيطرة الطغيان ·

ليس هذا هو السبب الذى دفع جوهر الى اعتناق افكار غاضبة · لم يترك الجامعة التى كان يقوم بالتدريس فيها · أو شقته فى الحى

الافرنجى الا بحثا عن جذور جديدة للمعرفة . لم يكن يؤمن انه مصلح او نبى . بل يهرب من العذاب الذى يخنقه كل يوم . هذا العذاب الذى يغرق فى داخله اين هى الآن انه هنا تتصارع تياراته امام ساحل جزيرة صغيرة اوى اليها جوهر . يتساءل كم من الوقت سيظل الحى الشعبى يقاوم الأنفاس المسمومة ، بلاشك سنوات ، ربما قرن ، يا له من حظ يجعله يعيش فى عالم يتلذذ بالقتل . توصل جوهر الى هذه المقولة الهامة : ليس للقوة الدامية أى تأثير على الأشخاص الذين لا يقرأون الصحف . فالعذاب لا يمكن ان يمس هؤلاء الناس . ويبقى الحى الشعبى هو المكان الوحيد البعيد عن العنف. يمكنه ان يعيش فيه حياة دءحبة تحركها الدوافع البسيطة اما اى مكان آخر فيبقى جنونا . ثم ان هناك عدوى أخرى الاذاعة : فاختراع المذياع يمثل بالنسبة لجوهر أكبر اعلان عن الشيطان . هذا الصندوق الصغير الذى يراه فى كل مكان يبدو أكثر احداثا للضجيج من كل المتفجرات مجتمعة .

مر وقت طويل أحس بعده أن الصمت قد علا الغرفة المجاورة . أصاخ السمع محاولا أن يسمع صوتها . يود أن يعرف كيف انتهت الأمور . على كل فهو شىء يبدو مرضيا . فالذى يحدث فى الغرفة المجاورة أكثر تهذيبا من كل ما تعلمه سنوات طويلة فمشهد الغيرة هذا يعلن حقيقة هامة . بدائية الانسان . فرغم كل العجز الذى أصاب القعيد . لكن لا تزال القوى الحسية ماثلة فيه . ليس لانه رجل يبحث عن الجنس ولكن لأنه يأمل — مثل كل الناس — ان يكون مركز الكون . كاد ضوء الشمعة ان يخبو . ثم بدأ يتحرك ويرتجف . كاشفا عن خواء الغرفة رمش جوهر بعينه وهو يتطلع حوله كأنه استيقظ من النوم لتوه . معجبا بفقر مسكنه . لا يوجد أى أثاث عدا أوراق الصحف التى يستخدمها كحاشية : كومة من الأوراق المكدسة المبللة لم يفكر أن يضع أوراقا أخرى مكانها .

سوف يطلب بعضا منها من الكردى . الوحيد الذى يشترى الصحف ممن يعرفهم .

غريب ان يقوم بتنظيم المكان الذى سينام عليه كأن شيئا لم يتغير . كأنه لم يقتل هذه العاهرة الصغيرة . هل غير هذا فى الأمر شيئا فالأمر لا يعدو حدثا . تساءل عما يمكن ان يحدث له وعما اذا كان ما اقترفه قد ارتكبه فى زمن بعيد حين كان يعيش عيشة الأشراف والموقرين . بالتأكيد كان سيعد نفسه وحشا ولا يستطيع أن ينام من الندم . أما الآن فلا أهمية لشىء . أليس هذا تقدما ملحوظا ؟ لقد قطعت هذه الجريمة كل الأواصر التى تربطه بماضيه الكاذب . خلاص حقيقى . لم يستبعد متاعب الضمير . لكنه يؤمن أن كل ما حدث ليس سوى تجربة .

بدأ القعيد يتأوه من جديد ، أعلن عن جوعه وهو يكاد يبكى . لكنه لم يسمع صوت المرأة .

ماذا تفعل ؟ تخيلها جوهر تأكل أمام جوهر الذى لا حول له ولا قوة .

سعل ، سمع طرقا على باب الحجرة :

ـ من ؟

ـ أنا يا سيدى .

انه صوت يحيى الذى يبدو مبتهجا خلف الباب .

ـ ادخل يابنى : أهلا وسهلا .

فتح يحيى الباب . أدخل رأسه أولا . ثم جسده مستديرا حول نفسه فى حركة بارعة متقدما نحو جوهر . حياه منحنيا . ثم فرد قامته وانحنى مرتين أو ثلاثا وكأنه تحت أمره . هناك شىء ما فى هذه التحية التى يطلقها هذا الصعلوك البسيط أحس أن

يحيى يكن له فعلا الكثير من الاحترام والمحبة . لكن احترامات يحيى تبعث دائما على تسليته وقد اعتاد عليها .

قال يحيى عندما لم يأمره جوهر :

ـ أرجو الا ازعجك يا سيدى .

ـ أبدا . هذا يسعدنى . أجلس .

أراد جوهر أن يقوم ويترك له المقعد . عارض جوهر بشدة . وكأنه يخشى ازعاج استاذه :

ـ أبدا . هذا يسعدنى . اجلس .

ـ أبدا . أنا فى خدمتك . سأجلس أرضا .

تراجع نحو الحائط وهو يرقب جوهر بعينيه . ثم جلس أرضا . وقد عقد ساقيه حول بعضهما تبدو طريقته غريبة . وكان هناك سببا لهذا . يبدو جوهر وقد أصبح فجأة شخصا أسطوريا معلنا عن أمور أخرى تبدى حبه البسيط .

ـ لعلك تسأل ما الذى أتى بى يا سيدى .

رد جوهر : لعلها الرغبة فى رؤيتى .

ـ بالطبع . لكن هناك شيئا آخر .

ـ ليحفظنا الله . خيرا .

تخلى يحيى عن مظهره . وضحك ساخرا :

ـ تملكتنى قوى الجحيم يا سيدى : زارنى اليوم ضابط شرطة . لا أعرف كيف عرف مكانى . كنت أقيم فى هذا الفندق .

قال جوهر : أعتقد انه لم يجد شيئا طالما انك هناك .

ـ لا يتعلق الأمر بالمخدرات . اعتقدت أيضا انه جاء لنفس

السبب . ولكن لا ، فقد ابلغنى انه يبحث عن قاتل . باختصار يشتبه اننى قاتل الفتاة أرنبة . ووجه لى هذه التهمة .

لم تبد عن جوهر أية حركة . ليس فى حاجة أن يكشف ما يضره . فالشرطة تقوم بواجبها مسألة اجراءات ولا يهمه هذا فى شئ .

ـ لماذا يشتبهون فيك يا ولدى ؟

ـ يقولون ان القاتل من رواد الماخور . ولأنهم يعرفوننى . فقد قبضوا على . لأننى صاحب سوابق اعتقدوا انهم وجدوا ضالتهم . لكن للأسف . ليس لديهم دليل ضدى .

ـ ماذا قال ضابط الشرطة ؟

أسعد هذا السؤال المنتظر يحيى :

ـ حاول استفزازى . لكننى سخرت منه .

ـ سخرت منه ؟!

ـ طبعا يا سيدى ، توعدنى بأشد العقاب وكى أرد على تهديده حدثته عن القنبلة .

ـ أى قنبلة يا صغيرى ؟

ـ القنبلة يا سيدى ، انت تعرفها جيدا تلك التى يمكن ان تدمر مدينة .

ترك جوهر يحيى يتكلم عن تفاصيل مقابلته بضابط الشرطة . وكان ما حدث شئ عجيب . لكنه الآن لم يعد يفهم . هل وقع صديقه تحت تأثير المخدر ؟ لم يستطع أن يربط بين تهديد الضابط ورد يحيى . هل يلعب يحيى دورا ما . ليس هذا مستحيلا .

ـ كلمنى يابنى . عن دور هذه القنبلة فى الأمر .

ـ الامر بسيط يا سيدى • حاولت أن اجعله يفهم خطر القنبلة المدمر •

ولم يكن هذا كل شيء •

فقد مست هذه الحكاية شغافه وبدا شاحبا • أصابه الحرق بالمرض واصبحت رؤيته مضحكة • اشفقت عليه أخيرا • أكدت له انها قنبلة تكلف غاليا وانهم لن يخاطروا بالقائها هنا •

هز جوهر رأسه بكثير من السذاجة •

ـ انت مخدوع يابنى • سوف يلقونها على امهم • هؤلاء الاقذار لا يحترمون أحدا •

ـ أتعتقد هذا يا سيدى ؟

ـ انه الشيء الوحيد الذى أؤمن فيه •

ـ انهم مجانين •

ـ لا ، لا تحاول تهوين الأمر • فليسوا مجانين ، بل على العكس • انهم فى منتهى الوعى • وهذا يجعل الأمر أكثر خطورة •

وبدا يحيى مندهشا • كيف أمكن أن يبدى هذه الخيالات • كيف يصدق سذاجة أن القنبلة هى سبب كل المآسى • لم يخدع جوهر أبدا فى محاكمة أولاد العاهرة الذين اخترعوا القنبلة •

ـ حدثنى يا سيدى • هل هناك فرصة أن تنفجر بين أيديهم • هذه القنبلة القذرة •

ـ لا أعتقد • انهم بالغو الحرص • والانتباه حتى لا يحدث هذا الهم •

قال يحيى خائبا : خسارة • وددت أن تنفجر بين أيديهم وهم يستعدون لتفجيرها • سيكون هذا أكبر نكتة فى القرن العشرين • أحب أن أفرح يا سيدى •

ـ كفاك مزاحا • يبدو هذا القرن كانه قد تجاوز كل القرون الاخرى فى أمور الفاشية •

ـ انت على حق • فلا تخش شيئا •

سكت يحيى • لم ينسه هـذا الحديث عن القنبلة وآثارهـا التدميرية الخطر الاخطر مثولا من القنبلة • لم تخمد نظرات جوهر كانه يخشى ان يراه متخفيا • جالسا فوق مقعده وقد كشف نور الشمعة عن وجهه • الغرفة خاوية يبدو جوهر مندهشا تماما • لكن يحيى لا يمكن أن يقدر مدى هذه الخسارة فالحب الذى يكنه لجوهر أهم شيء فى حياته • يجب أن يضع نفسه تحت خدمته من أجل انقاذه • وهذا هو المهم •

سمع فجأة حوارا يدور فى الجانب الأخر من الحائط • يتوسل القعيد أن تعطيه شيئا ياكله بدا أضعف ما يكون • تبدو تأوهاته أشبه ببكاء طفل حديث الولادة •

سأل يحيى : ما هذا ؟

قال جوهر : جيران جدد • الرجل قعيد • أما المرأة فاشبه بالحائط • تحمله كل يوم فوق كتفها وتضعه فى مكان من الحى الافرنجى كى يتسول • وتعود لتاخذه فى المساء •

وهو الآن يشكرها على هذا الصنيع فبدونها لايستطيع شيئا •

ـ هل يتأوه بهذه الطريقة ؟

ـ أجل يطلب طعاما •

ـ لماذا لا تعطيه شيئا ياكله •

ـ لو قلت لك يا عزيزى يحيى : فلن تصدق • انها تغير عليه ؟ وفى هذه الساعة تعاقبه •

– مستحيل · غيرة لقعيد · لماذا · هل يخونها ؟

– كل شيء ممكن يابني · أما كيف عرفت انه يخونها فلا أعرف · يجب أن ننتظر كل شيء من النساء · حتى مع قعيد · المهم ان يستطيع ممارسة الحب ·

– لا أصدق · على كل حال فهي تنتقم بطريقة نبيلة · تتركه يتضور جوعا : قل لي الا يمكن أن تفعل شيئا من أجله · لا يمكن ان تتركه يا سيدى · أود أن أكسر فك هذه المرأة ·

– ليحفظك الله يابني ! انت لا تعرف هذه المرأة انها شرطي حقيقي · أقوى منك بعشر مرات لن تنال منك سوى بلكمة ·

أثار هذا الوصف للقعيد الهادىء بعضا من نخوة يحيى ·

ظلا صامتين لحظة · بينما يتألم القعيد يتوسل · مما ترك أثرا في يحيى · وأحس بالجوع هو أيضا ·

– حقا يا سيدى · الا تعتقد انه لا يمكننا أن نفعل شيئا له ؟

– لا · فهذا لن يحل المشكلة · سوف تعطيه ما يأكله · الا ترى أن رجلا كهذا أشبه بمنجم ذهب ، ما احساسك اذا غارت عليك امرأة ؟

– أعتقد ان أى امرأة لا يمكن ان تغير على · ومع ذلك اشعر بالوسوسة في كل أعضائي · حتى لو كان الأمر خطأ ·

– سوف ترى أنك ترغب مثل هذا الرجل ·

ساد الصمت · بينما غرق يحيى في دهشة · هل يهتم جوهر بهذه الأمور العائلية الى هذا الحد يبدو غريبا · وكأن خطرا يحيق به · يتابع فرحا وقائع المغامرة الدامية منذ أن دخل حجرته ·

ينتظر يحيى أن يصرح له جوهر باعترافه عن جريمته · لكن شيئا لم يحدث لماذا ؟ ألا يعتبره الانسان الذى يمكن أن يبوح له بكل شيء · فهذا الأمر يجعله غامضا يغوص في شك غريب · هل خدع ؟ واذا لم يكن جوهر القاتل ؟ فان شكه قد نما بعد الظهر حين مشى مع الضابط في الشوارع الشعبية ، لم يسمع سوى تهديدات الضابط بينما انشغل يحيى بتحية من يعرفونه · عندما تذكر أمرا هاما · لقد قدم له جوهر العزاء في موت أمه · وهو لم يحدث أحدا عن موت أمه سوى أرنبة · العاهرة · ثم قتلها · اذن فجوهر آخر شخص رآها على قيد الحياة ·

ومع هذا فهو يتألم حين يفكر ان جوهر قاتل · تردد لحظة · ليس امامه وقت يضيعه · يعرف أساليب الشرطة جيدا · ولا يمكن لجوهر أن يدافع عن نفسه اذا وقع تحت استجواب قاس · ومن ناحية أخرى · هل يرغب في الدفاع عن نفسه ؟

– في الواقع يا سيدى · جئت لأخبرك أن تكون حذرا ·

– مم يابني ؟

قال يحيى : هناك خطر كبير يكمن هنا ·

قال جوهر : ليس الخطر كبيرا كما تعتقد ·

لم يحاول أن يفكر · ولم يسأل كيف اكتشف يحيى أنه القاتل · قال بعد لحظة :

– لقد عرفت اذن ·

– سيدى · لا أفهم كيف حدث هذا ·

قال جوهر : وأنا لا أعرف كيف أشرح لك · يبدو أن هناك شخصا آخر كان مكاني · لكن لا تعتقد انني أحاول ان أبرز أن أرنبة كانت وحدها · وطلبت مني أن أسطر لها خطابا ودعتني الى غرفتها ·

وطيلة وقت طويل لم أفكر سوى فى المخدرات ، وطريقة للحصول عليها ، ثم رايت أساورها فجـأة ، وهى التى بعثت فى فكرة القتل ، كان يجب أن أحصل على هذه الأساور .

قال يحيى : لم تكن الأساور تساوى شيئا كبيرا فى تلك اللحظـة .

قال يحيى : اذن فانا المذنب ، أعذرنى ، كان يجب ان أكون هنـاك عندما تحتاجنى ، على كل حـال ، فلا يتعلق الأمر بتبرير الحدث ، المهم هو ان تهرب بأقصى سرعة .

ـ لماذا أهرب ؟

ـ حتى لا يقبضوا عليك ، هذا الضابط الذى جاء ايرانى ، انه شيطان ، ولن يهدأ حتى يقبض عليك ، اريـد أن أساعدك ياسيدى ، اسمع نصيحتى ، أستحلفك ، لقد تأخر الوقت .

ـ عزيزى يحيى أقدر مشاعرك ، لا اريد أن تزج بنفسـك فى هذا الأمر ، سوف أنصرف وحدى .

ـ لايمكنك أن تدافع عن نفسك مع هذا الرجل ، ارحل الى سوريا ، انها الفرصة الوحيدة .

ـ كيف أرحل ؟

ـ سوف أدبر النقود اللازمة لسفرك ، اعتمد عل .

ـ ستقتل شخصا ، اذن لن تنتهى .

قام يحيى ، ظل لحظة بدون حركة وهو يتطلع الى جوهر ، ثم اقترب منه ، انحنى وأمسك يده ورفعها الى شفتيه وهو يقول :

ـ أنت الانسان الوحيد الذى أحبه واحترمه فى هذه الدنيا ، يمكنك أن تأخذ حياتى .

تأثر جوهر ، وقد اكتسى بابتسامة حزينة .

ـ لا تكن جادا يابنى ، فهذا سيزيد المشكلة ، ثم من اخبرك أن هناك قنبلة سـوف تنظم كل الأمور ، فى الغرفة المجـاورة ، تتاوه المرأة الآن ، تزمر كأنها حيوان يختنق ، لم يفشل جوهر فى ان يتكهن ماذا يحدث ، قال :

ـ اسـمعت ، لقـد انتهى كل شىء ، انهمـا يمارسـان الحب الآن .

ـ أنت واثق ياسـيدى ؟ آه ، اريـد أن ارى هذا ، انه مشهد صامت .

قال جوهر : لم أعهدك متلصصا .

ـ فى حال كهذا يصبح كل العالم متلصصا .

وبعد لحظة سمعا صـوت اناء من الحديد .

(٩)

تقدمت الترام رقم ١٢ المتجهة الى الحى الافرنجى وهى تدق أجراسها . كان على السائق . أن يضغط بقوة على الجرس كى ينبه المارة الذين يمشون ببطء فوق القضبان وكأنهم يسيرون فى قرية آمنة . ولا أحد يرى المحصل المسكين الضائع وسط الركاب . فقط يسمعونه يطلق صوته الأجش مطالبا أن يفسحوا له مكانا . فهذا كل ما يأمله . فعندما يتعطل الترام يضطر الى النزول لمراقبة السيارات واصلاح العطل. أما بالنسبة لدفع ثمن التذكرة ، فهذه ليست مسألة نقاش .

وقف الكردى يشعر بالمرارة لوجوده فى مثل هذا المكان البدائى . عليه أن يهرب من هذا الترام اللعين الذى يسير بطريقة مزعجة . لقد تأخر الوقت ، وكل المحاولات مكتوب عليها الفشل نتيجة لهذه الحشود الآدمية المكدسة على الأبواب . تذرع الكردى بالصبر ، ليس عليه سوى الانتظار . طبقوا طربوشه أثناء زحمة

الصعود . فالتصق تماما فوق رأسه ولم يحاول أن يدفعه . وجد نفسه محاطا بموظف صغير نائم يرتدى عوينات . وامرأة بدينة ترتدى ملاءة لف . تنبعث منها رائحة الثوم . ورغم أن هذا الأمر ليس من خصال الكردى . الا أنه بدأ فى اثارتها محاولا تناسى وقفته التى يرثى لها . حاول أن يدير رأسه كى يعرف من المرأة قبل أن يثيرها . ولكن ما رآه أصابه برعشة . فوقف جامدا فى مكانه . فالمرأة البدينة تزيد على الستين عاما تبتسم له بطريقة مبتذلة . وهى تكشف عن فمها الخاوى من الأسنان . وهى تستكمل مهمتها بينما وقف الكردى متسمرا فى مكانه .

الساعة الآن السادسة مساء . والركاب يتزايدون . سحبت المرأة ساقيها لكن رائحة الثوم لاتزال تنبعث منها . ود الكردى أن يتقيأ . أغلق عينيه وحاول أن يركز انتباهه فى صـوت الجـرس الذى يطلقه السائق دون توقف . انه ليس متجها الى نزهة ليجد نفسه فى ترام كهذا . فى طريقه الى الحى الافرنجى يضع الكردى فى رأسه فكرة أخرى . فمنذ أن اتهمته عشيقته بقتل أرنبة وهو يؤمن أنه مضطر أن يرتكب جرما يكافىء به كذبهـا . يمكنه أن يسرق . فى هذا المساء فكر فى خطة موضع تنفيذ . يعرف الكردى ـ وهو ماثل أمامه دائمـا ـ أفخم محـل مجوهرات فى المدينة . يقع فى شارع فؤاد ، ويعتقد أنه بالغ الدهاء كى يستولى منه على جوهرة غالية الثمن تردد فى الطريقة التى عليه أن يتبعها . فرغم غشيانه الا أنه حاول أن يتذكر كل ما يتعلق بالجواهر التى يقرأ عنها فى المجـلات المتخصصـة ، أو الروايات البوليسـية . ما الأسـلوب الأمثل ؟ يود الكردى أن يحقق جديدا فى هذا المجال . فعلى ثورى مثله ألا يتبع نفس طرق اللصوص المتشردين . فحبـه العظيم يدفعه . لكن لا توجد فكرة ماثلة فى ذهنه .

شعر فجأة بعينين تنظران اليه . فتح عينيه وتأكد من صدق حدسه . فهناك شخص يتأمله بدقة . شـخص يشع البؤس فى وجهه . الأعور الجالس قريبا من الباب المواجه له مباشرة .

تألم الكردى وهو يشعر أن الأعور يحملق فيه بعينه العوراء . كأنما العين السليمة لم تعد ترى .

ظل الأعور ينظر اليه بحدة . وقد شـع الهذيان من عينه الوحيدة . لكن الكردى لم ير سـوى العين العوراء فلا تتلاقى نظراتهما قط . استغرق هذا المشـهد بعض الوقت . تسـاءل الكردى عما يوده هذا الرجل . فهو لم يره من قبـل . شعر بالعصبية وهو يحاول أن يتلافى الرجل ويفكر فى موقفـه المثير للاستفزاز . وفى مدى تخلصه من هذا الموقف : سوف أبصق على وجهه ولذا اذا كان ينظر الى . ولكنه خشى أن يثير قلاقل فى نفس اللحظة التى يستعد لارتكاب جريمـة سرقة جسـورة يحتاج فيها الى أعصاب باردة .

توقف الترام فى محطة . ثم تحرك من جديد . رأى رأس المحصل تخرج فجأة عند الباب ياله من رجل ماهر استطاع أن يؤدى هذه الحركة . صاح :

ـ من لم يأخذ تذاكر ؟

لم يرد أحد على هذا السـؤال . يبدو المحصـل نحيفـا . ذا وجه شاحب يرتدى ملابس غير مهندمة . بدا وقحا وهو يهـدد بايقاف الترام . فيخرج الركاب نقودهم مغتاظين كأنمـا يدفعون للمحصل غرامة . تحركوا جميعا عدا الأعور . فهو لا يزال يركز نظراته على الكردى بعينه الوحيدة .

وجه المحصل كلامه اليه وقد فرغ صبره :

ـ أنت يارجل .

رد الاعور بلهجة جافة دون ان يدير راسه : مخبر .

تصــور الكردى أن الترام سيقف وان كل هؤلاء الركاب سيقفزون منها . تقدم نحو الباب وقفز من الترام فوق الرصيف . عندما وقف يسترد أنفاسه . كانت الترام قد اختفت تماما كانه كابوس يتلاشى . فقد احس بالصدمة وهو يسمع الأعور يعلن عن هويته . أى خوف اعتراه : حمدا لله أنه وقع فى طريق مخبر غبى كهذا . لكن لماذا كان يرقبه ؟ ليس ـ بالتأكيد ـ لأنه يعتزم سرقة جواهرجى . فهو لم يتخذ قراره بعد . فلا يمكن للشرطة أن تقرأ افكار الناس . فلو كان يرقبه فهناك سبب آخر . لم يتأخر في بلوغ السبب . فالشرطة تعلم أنه ثورى . وقد أخبر الضابط بهذا أثناء الاستجواب فى الماخور . وعليه فان الأعور يقوم بمهمته ابتسم الكردى فخورا وهو يتنهد . وشعر كان نشوة تملأ رأسه . اذن فهو ثورى حقيقى . تطارده الشرطة . ويثير قلق السلطات العليا . ولن يسخر جوهر ـ كالعادة ـ منه عنــدما يعلم أية مراقبة رهيبة ترصدته . أدار رأسه فى عدة اتجاهات كى يرى اذا كان يتبعــه أحد . ولكنه لم ير اى أثر للاعور غمرت الأضواء شارع فؤاد فى وسط الحى الأفرنجى الذى ســار فيه الكردى بخطى مضطربة واحساس بالقلق انه يسير فى مدينة أجنبية . يتساءل دوما عما اذا كان فى بلده ، لايصدق . يبدو كل رجال الأعمــال كأنهم خارجون من كوارث . وتحمل الوجوه بعض علامات التحذير ، ترى ماذا ينقص هذه الحشود الغفيرة . يتعجب من سلوك هذه الجموع التى اعتادت ان تسير حياتها .

ياسف لتلك الحارات المليئة بالطين والحصاه . هناك الكثير من الآمال فى الأكشاك المصنوعة من الصفيح فوق أرصفة رطبة . يعيش أعداء الشعب فى هذا الحى . انهم قلعة الضغوط . الثراء الواضح فى واجهات المحلات . وأبهة معروضات الأرصــفة . كل هذه الأشياء تخطر بباله . فهم الكردى لماذا يكره جوهر هذا الحى .

راى بائع صحف صغيرا فخرج من كآبته واستعاد عالمه .

ـ ياصغير . هل معك الصحيفة اليونانية ؟

ـ اتقرأ اليونانية ياسيدى ؟

ـ أجل . لماذا لا اقرأ اليونانية ؟

ـ يا الهى . كل شىء ممكن فى هذا البلد .

اشترى الكردى نسخة من جريدة المدينة الوحيدة التى تصدر باليونانية طواها ودسها فى جيب سترته . انه فى حاجة أن يمارس هذا الغباء . كل هذه الأمور الجادة تثقل عليه كأنها اهانة موجهــة لشعب كهذا . أراد أن يهرب من القلق الذى يكتنفه . وقد أنسته المباغته التى سببها للبائع الصغير خطته .. يالهــا من نكتة . حان أوان التصرف لقد وصــل الى هدفه . وأصــبح الجواهرجى على مسافة أمتار .

تذكر تلك الكلمة التى قرأها فى مكان ما . ولم يستطع أن ينساها . « المصادرة » . تمثلت الكلمة فى ذاكرته . لن يذهب ليسرق بالطبع . ولكن « ليصادر » هذه الفكرة أقامت الطمأنينة فى قلب اللص . رغم أن هذا لم يغير موقفه بسهولة . بالتأكيد فان الصعوبات تتغير . ولايزال الكردى أمينا لأفكاره الثورية . وبدت له محاولته الآن بداية عصر جديد من النضال الطويل الدامى مثل الشعلة الخالدة التى لاتنطفىء الا بحرية الشعب .

اثرت فيه عظمة تجربته حتى كاد ان يبكى تقدم نحو واجهة المحل . كانه قد الف هذه الأمور ليس سوى أداة للشعب وقد قرر الانتقام . توقف . كانه الميدوزا فى مياه المحيط يشاهد الجواهر تلمع أسفل عينه . وقد بدات تعكس اشعتها الغريبة على عينه راى الكردى نفســه غارقا فى حكايات السحرة . وانه وحده قد وقع على هذا الكنز الضخم . وهامى شجاعته تثقل عليه كانها حجر ثقيل . أيسرق ؟ هذا صعب لكن كيف ؟ كيف يمكنه أن ينال احدى هذه الجواهر التى يشعر انها أبعد من نجوم السماء . هذه المرارة التى يحسها مقابل سذاجته تدفع بالدموع الى عينيه تذكر عشيقته المريضة التى تنتظر حضــوره لنجدتها . تامل كنوز واجهة المحل بعينيه المبللتين . وهو يفكر أنه بثمن احـدى هذه الجواهر يمكنه أن ينزع نايلة من مصيرها المجهول . وان ينقذ الفتاة من الدعارة ويؤكد لها حياة شريفة هى الآن أمر قوى وواقعى . يبحث يائسا عن طريقه . فهذه الجواهر لا تزال بعيدة .

وتبدو منتمية لعالم آخر أحس بقوتهــا . ضــم قبضته ورفع ذراعــه كى يحـــطم الواجهـــة . عبقت رائحـــة النرجس متسللة الى خيشــومية مؤكدة وجـــود امرأة بجـــانبه . توقفت ذراعــه . خـــانته أعصـــابه . غمـــرت وجـــوده فرحة كبيرة - فهــذا العطر كـــاف تمـــاما أن يخفف من غلوائه دون ان يـــدير راسه . ألقى نظرة جانبية على المرأة الواقفـــة الى جـــواره . ساكنة . مهيبة . بدت مشدوهة بالثراء الماثل فى واجهة المحل بنت بلد أنيقة . لفت ملاءتها جيدا على جسدها فابرزت مفاتنها . رغم ان وجهها ظل مختفيا أسفل البرقع الحريرى الأســود . كشفت عيناها المدغمتان بالكحل عن جمال باهر مثل هذه المرأة كفيلة ان تثير مشاعر الكردى الذى غاص فى جلده . بدت مشغولة بعقد من الماس بدا لها انه الشىء الوحيد المعروض فى الواجهة .

سحر هذا المخلوق الكردى تمــاما أعجــزه عن التفكير . ثم تملكه الخوف أن تذهب مما دفعه أن يقول بصوت هامس :

ـ أعتقد أن هذا العقد قد أعجبك .

تلفعت المرأة كانها ثعبان . وقالت :

ـ لكن أين الثرى الذى يقدمه لى ؟

لم يجد الكردى شــيئا يرويه هذه الدعوة الزكيـــة . فالمرأة عاهرة . ولكنها عاهرة من درجة راقية . لن يقدم لها ـ بالتاكيد ـ العقد الماسى . ولا حبة ذرة مشوى . من تتصوره فكر . انه يتصرف كتاجر . وهو لايخشى شيئا . فليس لديه شىء يفقده فى مغامرة . لاتشك هذه الأنثى الغبية فيمن تتحدث معه . لايملك لها شيئا انه يحب النساء كثيرا ويعرف خصالهن ويجيد التصرف معهن .

الآن آمن أن القدر لم يسقه الى هـــذا المكان الا ليقابل هذه العاهرة التى تبدو أرستقراطية . بحث بسرعة عن دعابة كى يستمر الحديث ويعمل على اضحاكها .

لكن المرأة لم تترك له الفرصة . تركت واجهة المحل بسرعة . وذهبت مسرعة كأن شخصا أهانها . لعلها فهمت أن صمت الكردى قبول . هل صدقت حقا أنه سيشترى لها عقد الماس ؟ اى جنون تبعها الكردى . لم تكن وحدها . فتاة صغيرة ذات ضفائر ربطتها بشريط وردى وترتدى قبقابا خشبيا . راى الكردى أن الفرصـــة سانحة . فالصغيرة عامل هام كى يتعرف بسرعة على المرأة . تابعها بخطى سريعة ثم سار فى حذائهما منتظرا اللحظة القاسية ليدخل . يمكنه الآن أن يتكلم عن اناقة المرأة التى تهز مؤخرتها . وتقرقع رصيف الشارع بكعب حذائها العالى . تسير كانها نائمة . تنظر الى الأمام . تختلف عن تلك التى باحت برغبتهـا . بدا مرتبكا

بصورة لم تحدث له من قبل فى علاقته بالنساء . يعيش الكردى لحظات حاسـمة لقد نسى كل أفكاره عن الشعب الفقير والثورة . وانقلاب القوى الغاشمة . يمـكن لكل هذا أن ينتظر . فهو الآن مشغوف باصطياد هذه الفريسة . ارتجف وهو يتخيلها بين يديه .

ود لو يولى اهتمـامه الى الصغيرة التى امتـلأت نظراتهـا بالانتقاء والغيرة . استعد لدخول المغامرة . أدخل يده فى جيبه الملىء باللب وبدأ فى شخشختها . ثم مد يده المفتـوحة بكل براءة نظرت الفتاة الى يد الكردى دون أن تجرؤ على لمس اللب .

ــ خالتى !

سألت المرأة بلهجة حادة : ماذا ؟

بدت كأنها تتجاهل وجود الكردى !

ــ هل يمكن أن آخذ ؟

ــ ماذا ؟

ــ اللب .

ــ خذيه . كما تشائى .

استدارت الفتاة نحو الكردى وقال :

ــ خذى .

ثم سكب اللب فى جيب الفتاة . بدأت الفتاة فى قزقزتهـا متعمدة . داعب الكردى شعرها بحنان أبوى انهما يمثلان الآن أسرة واحدة تقوم بنزهة .. شعر الكردى بنشوة النصر . وانه ليس

بعيدا أن يتزوج الآن من المرأة التى بجانبها . لايهم . فهو قادر على كل شىء . لم يقابل أبدا غانية لها نفس الجمال والأناقة . انهـا فرصة حياته لم يصدق انه حصل عليها . فهو لا يحب الفشل .

ورغم أن المرأة تجاهلته الا أن الكردى يملؤه الأمل . استمر فى مداعبة الفتاة :

ــ ما اسمك ؟

ــ اسمى نجفة .

قال ملحا : اسم جميل . هل تحبين اللب ؟

ــ أجل وآكله دائما .

ــ حسنا . فى المرة القادمة سأشترى قرطاسا كبيرا .

هنا توقفت المرأة . واجهت الكردى وقالت بثبات .

ــ أعتقد أن الوقت حان أنتكلم بجدية .

فوجىء الكردى بهذا الهجوم السريع فتلعثم قائلا :

ــ بالطبع . فأنا أنتظر هذه الفرصة .

عليها أولا أن تطرح سؤالا ، ثمن سحرها ! فهم الكردى أن عليه أن يلعب بجـدية . ليس مستعدا أن يدفع لهـا أو يشترى شـيئا .

سألت المرأة : ما هى نياتك ؟

قال الكردى مؤكدا : أحسن نية فى الدنيا . تحت أمرك . عليك أن تأمرى .

ــ أين ستأخذنى ؟

أمامى ينظر الى بريبة . بدا مرعبا . فالرجل أعـــور . وبعينه العوراء يرقبنى . ولك أن تتصور الرعب الذى شعرت به .

ـ مالذى جعلك تتصور أنه شرطى . ربما ليس أكثر من رجل أعور .

ـ دعنى أروى لك الباقى . فهى قصة عجيبة . عندما جاء المحصـــل ليبيع التذاكر . قال بلا شـــك وبكل غبـاء رد مخبر وبكل بساطة .

قال جوهر : غريب . أعتقد انك انفجرت ضحكا .

ـ كيف أضحك يا سـيدى ؟ لقد قفزت لتوى من التــرام وهى تسير .

سأل جوهر : لكن ماذا كنت تفعل فى الحى الأفرنجى ؟ .

ـ لقد أخبرتك اننى سأدبر مالا . ذهبت الى الحى الأفرنجى كى أسرق من جواهرجى فى شارع فؤاد .

ـ وهل نجحت ؟

قال بمرارة : لم يكن الأمر سهلا كما تصورت . وأعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يفعل . فى الواقع فلم يكن يفكر فى واجهة المحل المليئة بالجواهر . ولكن فى نجربته الضائعة مع المرأة . كانت تود عربة حنطور . كاد أن يروى الحكاية لجوهر ولكنه تراجع فهذا الأخير يعامله كثورى .

ـ ولماذا تحتاج الى مال ؟

ـ ليس لى ياسيدى . فانا أستطيع أن أعيش فقيرا . لكن

عايلة مريضة وأريد أن أنتشلها من هذا المكان الملعون . ثم هناك أخريات .

ـ واى اخريات . هل لك أسرة ؟

ـ لا . ليس لى أسرة . افكر فى هذا الشعب المطحـون البائس . ياسيدى لا أفهم كيف تظل ساكتـا ازاء الأقدار الذين يفسدون هذا الشعب ؟ كيف يمكنك التغاضى عن القهر ؟

ـ اسـمعك .

أرضى الزبائن الموجودين فى صالة الانتظار ما سمعته آذانهم : فكل ما يقوله المخبر يهمهم جميعا .

قال الشرطى :

ـ عملية قتل البنت ارنبة تذكرنى بحكاية قديمـة حـدثت فى ماخور أيضــا . لا أعرف هل تذكرها . لقد تذكرت بعض تفاصيلها فجأة :

ـ فكلمه هذا الغبى ثانية عن الجريمة . سعل جوهر وأمسك عصاه وقال بلطفه المعتاد :

ـ آسف لا أذكر شيئا .

ـ انها حكاية حدثت قبل الحرب . تكلموا عنها كثيرا فى تلك الآونة . تتحدث عن عاهـرة قتلت بطعن السكين . وعنـد تشريحها اكتشف الطبيب الشرعى أنهــا عذراء . الأكثر غرابة انها ظلت تمارس مهنتها عشرين عاما . ما رأيك ؟

أضاف جوهر : غير معقول .

ـ اليس كذلك ؟ لا أستطيع ان امنع نفسى من التفكير فيها . عاهرة عذراء اليست لديها أية ثقة فى أحد ؟!

قال جوهر : حتى العاهرة تخفى ما يثير الدهشة .

ـ تعجبنى فلسفتك . أرى انك رجل خابر الحياة جيدا .

ضحك الشرطى ضحكة غليظة دافعا اياها وهو يقبلها فى فمها بطريقة وحشية . ضمنت عقيلة أنه على وشك أن يفقد أنفاسه . الى اللقاء يا جوهر افندى .

ـ تفضـــل .

قالت الست أمينة : أخيرا ، قرر . السـافل على الأقل فلن ينسل فى بيتى دون أن يصرف شيئا . عاد جوهر الى حسابه . لقد أثارته الحكاية ويمكن أن تحدث . هذه البكارة التى تفض . الماثلة فى جثة العاهرة القتيلة . الا تعتبر أغرب من جريمة ؟ حل جوهر اللغز . عليه أن يأخذ هذا العالم الساخر بصورة جادة ؟ سوف يثير هذا جنونه . سنوات طويلة من الجنون .

ـ كنت أعرف ياسيدى أننى سأجدك هنا . فلدى شىء هام اريد ان اخبرك به .

ظهر الكردى فى قاعة الانتظار . يكاد الطربوش يلمس اذنه . وقد غطى اسفل وجهه بمنديل يمسكه بقوة كأنه يحبس به دما .

ـ ماذا بك يابنى ؟ هل جرحت ؟

رفع جوهر صوته وهو يرد عليه :

ـ لم أنكر وجود الأقدار يابنى .

ـ ولكنك تكافئهم . انت لم تعمل شيئا لمحاربتهم .

ـ ليست صحتى موافقة . انا احاربهم أكثر منك .

ـ باى طريقة ؟

قال جوهر : بعدم التعاون . ارفض كل أنواع التعامل لكل هذا التحلق المتنامى .

ـ لكن الشعب لايقر هذا الموقف السلبى . عليهم العمـل ليعيشوا . كيف لايمكنهم الا يتعاونوا ؟

ـ ليصبحوا جميعا صعاليك . الست صعلوكا . عندما تكون بلدا يصبح فيه كل الشعب صعاليك . فسوف ترى ماذا سيفعله هذا العالم . سوف يسقط فى الوحل . صدقنى . انها المرة الأولى التى يسمع الكردى جوهر يتكلم بلغة عنف مماثلة . يعرف أن لديه افكارا حول انقلاب السلطة البغيضة . لماذا لم يقل شيئا من قبل ؟ قال :

ـ نحن شعب من الصعاليك . يبدو أن هناك أشياء كثيرة علينا أن نفعلها .

ـ أجل . امامنا اشياء كثيرة نفعلهـا . هناك ناس مثلك يتعاونون .

ـ انت مخدوع ياسيدى لا أعمل شـيئا . فانا متمرد فى الوزارة .

ظل جوهر صامتا ، انه لا يرضى عنه . أية حاجـة له فى الدفاع ، وأن ينكر وجود الأقدار وهو الذى تخلى عن كل شىء . الراحة . والسعادة . كى لايشـارك هؤلاء الأقدار . ماذا يعتقد

الكردى اذن ؟ ليكن الوحيد الذى يعرف بؤس الشعب الذى تسيطر عليه عصابة من اللصوص والداعرين رغم ان طفلا يعرف هذا . ابتسم وهو ينظر الى الشاب قال وهو يداعبه :

ـ لتعرف ان هنا مخبرا يمارس الحب مع الصغيرة عقيلة .

قال الكردى يا الهى حقا . على ان اكون حريصا .

قام فجأة كان المكان اصبح خطرا بالنسبة له .

ـ آسف على الجرائد يا سيدى سوف أحضرها غدا .

ـ شكرا يابك . يمكن ان انتظر .

ـ خذ هذا . لقد قرأته .

أعطاه الجريدة اليونانية .

كانت الست أمينة تنظر اليه بريبة . اطلقت تنهيدة وهى تراه يقترب منها :

ـ هل نائلة فى غرفتها ؟

ـ دعها تعمل ، هل تريد ان تحطمنى ؟ ،

ـ لن تتحطمى اليوم يا امرأة ها هى . عادت نائلة من الصالة . دون أن يعير الكردى اهمية . نظرت الى الست امينة وأعطت لها النقود فوضعتها فى صدرها . قال الكردى :

ـ تعالى لغرفتك ، ياعزيزى . فعندى كلام لك .

قالت نائلة دون أن تنظر اليه : دعنى . أنا هنا لأعمل وليس لأسمع حكايات قالت الست امينة : اذهبى يا فتاة ، هـذا الوالد مجنون . ولا أريد فضائح .

ـ لا ، ياخالتى . لن اذهب . لا أعرف هذا الرجل .

جلست على الأريكة قريبـة من الست أمينة باحثة عن حماية فى وجودها .

لم يفهـم الكردى سبب هذا البرود المفاجىء لماذا تتجنبه ؟ أخذ مقعدا وجلس أمام عشيقته وقال :

ـ يجب الا تعملى . قلت لك استريحى .

ـ هل ستؤكلنى ؟

بدا الأمر تحديا . فهل يتعلق الأمر بالأكل . قال بصوت مرتبـك :

ـ الشرطة تطاردنى وانت تتكلمين عن الأكل .

قالت الست أمينة : اسكت . لا تتكلم عن الشيطـان . فهو ليس بعيدا .

عاد المخبر . وهو يتأبط ذراع عقيلة مزمجرا كأنه الرجـل الوحيد القوى فى الحى كله .

همس بكلمات حب فى اذن الفتاة وابتسم للحاضرين كأنه يود أن يعتذر عن المتعة التى نالها منذ قليل .

استدار الكردى بهدوء نحوه وقال بتودد :

ـ اذا كان هناك رجل شرطة فى هذا البيت فاريد أن أعرفه .

هتف ذلك الذى يدعى انه فلاح قادم من الأرياف وهو يمثل دور الشريف الذى يخاف من وجود الشرطة :

ـ شرطة هنا ياله من نهار أغبر .

قال الكردى وهو يشير له باصبعه : يبدو انه انت .

تعجب الرجل :

ـ انت غلطان يا افندى . فلست سوى تاجر شريف .

تدخلت الست امينة لاتهن زبائنى . هذا رجل نبيل وانا أعرفه .

قال الكردى وقد تسلطت عليه صرعة غريبة : انت التى قلت ان هناك رجل شرطة فى البيت .

صرخت الست أمينة : أنا ؟ أيها الجاحد . وانا الذى اعاملك كابنى فى هذا البيت .

قال الشرطى : اهدءوا . أيها الناس الطيبون . هناك سوء تفاهم بسيط .

قال الكردى : لافائدة . أنا مستعد ان أتكلم .

ـ تتكلم عن ماذا يا أفندى .

ـ اعترف أننى قاتل الفتاة أرنبة .

فتح الشرطى عينيه وقد اكتسى وجهه بتعبير غريب . تجمدت نابلة لحظة . ثم انفجرت باكية . تأمل جوهر المشهد من مكانه وهو يبتسم . بالتأكيد لن يتغير الكردى ابدا . لقد وضع نفسه فى موقف قذر كى يثير دهشة هذا الجمع المسكين .

(١٠)

وقف العملاق ذو الكتفين العريضين فى دكانه الخشبى . كأنه مومياء فى تابوتها . حانوت ضيق . يتسع نصف متر بعمق ثلاثين سنتيمترا . مزخوم بالزجاجات المليئة بالعطور وعلب المراهم والقنينات المليئة بالسوائل ضد الضعف الجنسى والعقم . تفوح منها روائح كثيفة . تجعل الجو غير محتمل حتى آخر الحارة . وربما أبعد .

وبحركة عتيقة . فك الرجل غطاء القنينة . فاحت رائحتها للزبونة الواقفة على عتبة الدكان قال :

ـ نقطة واحدة من هذا العطر يميت الرجال من أجلك .

ردت المرأة ضاحكة : لا أريد أن أقتل أحدا . ولكن ان اعجب زوجى .

قال الرجل : اذن لن ابيعك اياها ، رحمة به ، لأنه سيغدو مجنونا .

– يا نهار أغبر ! لماذا تقول هذه الغباءات ؟ سوف اشتريهـا له .

–حسنا ، بعشرة قروش لأجل خاطرك .

فتشت فى ثنايا ملاءتها ، اخرجت منديلها ، وفكته وعدت النقود ، فسلمها التاجر القنينة قال :

– لن يستطيع زوجك ان يقاومك ، مسـتحيل أن يعيش بعيدا عن هذا العطر .

– اذا جاءك فلا تبع له منها .
– لاجل خاطرك ، لن ابيعه منها .

ذهبت المراة حاملة القنينة ، واستدار الرجـل ناحية يحيى وقال :

– حسنا ، السعر يناسبنى ، سوف آخذ البضاعة .

– ساحضرها لك فى اقرب وقت ، لا أعرف متى ، يجب أن نسلمها قريبا .

– اتمنى ان تكون بضاعة جيدة :

قال يحيى : أحسن حال ، انت تعرف ، سلام عليكم .

وهو يترك حانوت العطور ، اتجه يحيى ناحية قهوة المرايا ، اصابه بعض القلق ، فقد بدا الرجل متخوفا ، ليس من السهل اغراؤه ، فالأمر معروف بين تجـار المخـدرات ، وقد جرب يحيى مرات عديدة ويجب أن يقر أن هذا احتيال ، فالأمر يتعلق بكمية

من الهيروين ، حين تاتى لحظة تسليم البضاعة فان اللفافة تحتوى على سلفات صودا مشتراة من صيدلية ، يجب ان تتم الصـفقة بأسرع ما يمكن ، وسيمنع هذا المشترى من فحص البضاعة ، الا انه عندما يكتشف اللعبة يكون الوقت قد تأخر وليس امامه سوى ان يلعن اللص ، دون أن يجرؤ على الشكوى لاحد .

لم يفعل يحيى هذا منذ امد طويل ، ليس لانه واع ولكن لأن شهرته السيئة قد جعلته مشبوها بين تجار المدينة ، وأصبح من الصعب عليه أن يجد ضحية جديدة ، اما هذا الرجل الذى عثر عليه أخيرا فهو تاجـر لم يقـابل مثيلا له وسيعقد معه أحسن الصفقات ، المخاطرة كبيرة ، لأن الرجل مرشد شرطة ، يمكن ان ينصب له فخا ، ولكن يحيى ترك نفسه تنساب فى هذه المخاطرة ، فهو لا يعرف وسيلة أخرى لجلب النقود التى يمكن ان يسافر بها جوهر الى سوريا والهروب من مطاردة الشرطة .

فى مقهى المرايا ، وجد جوهر جالسا امـام الكـردى ، لا يتكلمان ، بدا الكردى أكثر قتامة عن أى وقت آخـر ، جلس جوهر يلف لفافتـه بالحشيش وقد هبطت عليه السكينة ، تاهت عيناه فى حشد الرواد الذين يملأون رصيف الشرفة ، من وقت لآخر ، يمسك الزجاجة الموضـوعة امامه ويحتسى من الشاى الساخن .. جلس يحيى معهما دون أن يتبس ببنت شـفة ، فهو لا يرغب أن يتكلم ، يفكر فيما فعله منذ قليل ، سوف يحصل قريبا على المال الذى يمكن جوهر من سفره ، فانقاذ جوهر من هذه المحنة يعد بالنسبة له واجبا مقدسا ، وطيلة هذه الأيام ، لم يفكر سوى فى الطريقة التى يساعده بها ، اصابته الدهشة حول تورط جوهر فى مثـل هذه الجريمـة ، فهذا الغموض لا يزال يلبسه ، كيف وصل جوهر الى هذا الحد ؟ وأى عبث دفعـه أن

يقترف امرا لم يتعمده ؟ فجوهر هو أقل البشر ميلا لممارسة العنف كيف يتخيل ان يهاجم عاهرة لا حول لها ولا قوة · مخلوق بائس مثل الآخرين · أراد يحيى أن يسأل جوهر عن كل تفاصيل الحدث الهذياني الذى دار بينه وبين ضـحيته ، ولكن نوعا من العفة ، والكتمان يتملكانه · أى حاجة للمعرفة · يجب أن تبدو الصداقة الحقيقية فى احسن صورة · دون أن تكون هناك تفسيرات ·

انطلق صوت الراديو فجاة كأنه العاصفة · تعالت الموسيقى بصورة لا تحتمل · هزت الريـح جوهر · بدا كأنه لاحظ وجود يحيى · فانطلقت ابتسامة باهتة من وجهه · قال :

ــ يبدو عليك التعب · ماذا حدث ؟ هل هناك متاعب ؟

رد يحيى : لا شيء · أنا متعب ليس الا · لم انم فى سرير منذ أيام ·

ــ هل تركت فندقك ؟

ــ اجل سيدى · فهو خطير ، لقد عرفت الشرطة عنوانى · وليست معى نقود · ولا يوجد فندق يود ان يقبلنى بالأجل ·

ــ هل يمكن ان افعل شيئا ؟ حجرتى تحت امرك ·

ــ اشكرك يا سيدى ! سوف تكون معى نقود هذا المساء · وآنذاك سيكون لى سرير ملكى ·

ــ هل تعتقد انهم لن يجدوك ؟

ــ أنا فى حاجة ان يتركوننى فى حالى أياما ، لأؤدى فيهـا ما يهمنى من أعمالى · سـوف يرتب هذا الأمر · فكل ما يمكنهـم هو مضايقتى · لكنهم لا يمتلكون شيئا ضدى ·

قال جوهر : لماذا لا تترك الأمر يأخذ مجراه · ماذا تخشى ·

ــ اخشى ان افتقدك يا سيدى · آسف لهذه الانانية · اعرف انك تسخر مما يمكن ان يحـدث لك · فكر فى اننى لا احتمـل فقدانك ·

ــ سوف تفتقدنى اذا رحلت الى سوريا ·

ــ يكفينى ان اعرف انك على قيـد الحياة · حتى لو كنت بعيدا ·

كيف يخبره أنه يخشى أقسى عقوبة بالنسبة له : الاعدام · تعيش روح جوهر فى عصور اخرى · تبقى ذاكرته قوية كالحجر الصوان ولكن هل هذه هى السعادة ؟ أية ذكرى يمكن أن تسيل الكلام الحلو ؟ هل تحتوى الـكنوز البشرية على مشـاعر حنونة ؟ لا · فيحيى فى حاجة الى جوهر حيا حتى وان ابعدته المسافات · فجوهر يكفيه ان يكون حيا · فوجوده فى أى مكان سبب لسعادته ·

هز الكردى رأسه وبدا كأنه غرق فى خيالات واسعة · نظر الى رفيقيه كأنه يلمحهما فقط · وقد برقت عيناه · سأل بحدة :

ــ عم تتكلمان · هل سترحل فعلا الى سوريا يا سيدى ؟ · اذن سنتركنا وحدنا استحلفك أن تاخذنى معك · أود أن ارحـل معك · لنرحـل حـالا · فلدى عربتى · والجيـاد مستعدة · ماذا تنتظر يا سيدى ؟

قال يحيى : ماذا هناك · بشرفى انت تهرق ·

قال جوهر : أعتقدانه على غير وفاق مع عشيقته · لقد حدث هذا توا · لا تقلق ·

قال يحيى : سوف أهدئه ، عزيزى الكردى ، اسمعنى ، لقد رأيت وانا قادم جامعة اعقاب سجائر بدت حسناء ، أعتقد انها ليست بعيدة ،

نظر جوهر الى الكردى وبدا فى محادثته بصوت خفيض ، وفجأة ارتسمت الدهشة على وجهه ، فقد رأى شخصا يعرفه فى الحشد الغفير ، قال :

ـ انتبهوا ، ها هو الضابط المكلف بالجريمة ، قادم نحونا كونوا حذرين ، ولا تقولوا شيئا ،

قال الكردى : سأقول ما يعجبنى ، فأنا لا أخشى احدا ،

بدا جوهر كأنه لا يفهم شيئا ، أمسك الكوب بهدوء واحتسى بعض الشاى ، استند الكردى على المقعد وقد شعر بالكبرياء ، وكأنه يستعد لمعركة فاصلة ،

اقترب نور الدين من مائدتهما ، بدا أنه لم يرهما ، قال يحيى مبتسما بسخرية : سلام يا حضرة الضابط ، الا تشرفنا قليلا ،

دعك نور الدين عينيه ، وقد بدا جامد القسمات ، بالتأكيد هو فى حاجة الى هذا اللقاء ، فهو ليس وحده ، يصحبه سمير ، بدا مترددا لحظة ، ثم ابتسم بفتور وقال :

ـ مفاجأة سعيدة ، سأكون ممتنا أن أتعرف على أصدقائك ، لكن يبدو اننى تشرفت بالتعرف على هذا الشاب ، أظننا تقابلنا من قبل ،

رد الكردى وقد بدا عليه التعالى : فعلا ، وأنا سعيد انك تذكرنى يا حضرة الضابط ،

ـ كيف يمكن أن أنساك ، لا أنسى ابدا رجلا ذكيا مثلك فحديثنا فى ذلك اليوم قد ترك انطباعا طيبا عنك ، فكرت كثيرا فى هذا اللقاء ، دعنى أقدم لك صديقى ، طالب فى كلية الحقوق، له مستقبل مرموق ،

هز سمير رأسه ، لكنه لم يمد يده للمصافحة ، يبـدو كأنه يجاهد لكبت أعصابه ، انه خجول ، لا يشك ان كل هؤلاء الناس ليسوا على شاكلة نور الدين ، حاول ان يذهب وهو يبدى ازدراءه للموقف ،

قال يحيى : وهــذا جوهر أفندى ، كيف لم تتعرف على جوهر افندى ، هذه فجوة كبيرة فى حياتك ،

قال نور الدين محييا جوهر : أنا سعيد بسد هذه الفجوة،

سأل يحيى : الا تجلس ؟

يبدو سعيدا لهذا اللقاء بدا يلف حول المائدة مقدما المقاعد ،

جلس نور الدين ، تردد سمير لحظة ، ثم جلس بدوره وهو يرمق الضابط بازدراء ، كم سيكون سعيدا وهو يقتله ،

سأل نور الدين : هل تتناول شيئا ؟

ودون ان ينتظر الرد نادى النادل وطلب شايا لكل الجالسين محاولا أن يبدى كرمه ، قال يحيى :

ـ هذا شرف كبير فعـلا يا سـعادة البيك ، انت تخجلنا بكرمك ،

قال نور الدين : عفوا ، لم أفعل سوى الواجب ،

ثم غير لهجته فجأة وقال :

ـ علمت انك غيرت الفندق • هل هذا صحيح ؟

رد يحيى : فعلا • وجدت هذا أفضل • فسعادتك تعرف ان الفندق خال من دورات المياه • ومن الصعب أن اقيم فيه فترة طويلة • ولعلك تقدر ذلك •

ـ هل يمكننى ان اعرف أين تقيم الآن ؟

ـ طبعا • فليس لدى ما أخفيه • أقيم الآن فى « سميراميس » فندق درجة أولى • مكان رائع • يقال ان الحياة تبدأ حين تدخله • آسف ـ فكما تعرف سعادتك ـ فانا مصنوع للأماكن الفخمة •

قال نور الدين مبتسما : أعتقد أنك مجنون دائما • لا يهم سوف أسمعك فيما بعد •

ـ هذا يسعدنى يا سعادة البك •

كان يحيى هو الشخص الوحيد ـ بين الجالسين ـ الذى قدركم أن الموقف حساسا • وأن الضابط والقاتل يجلسان على نفس المائدة • يدعوه الى شاى • ويتصرف بتلقائية • وهذا أمر طبيعى • تناسى وجود جوهر الذى لم يكف عن الدعابة والمزاح ـ لم يستطع أن يقاوم رغبته فى استفزاز نور الدين •

ـ سيدى الضابط • هل القضية فى تطور ؟

رد نور الدين : لست آسفا • فنهايتها وشيكة • لا تنسى ان الصبر هو الفضيلة المطلوبة فى مهنتنا • على فكرة • هل فكرت فيما سألتك عنه فى ذلك اليوم ؟ فهناك أمور تتعلق بك • وأعتقد اننى اقترفت ذنبا ضدك •

قال يحيى : فكرت • أحب أن أساعدك • صدقنى • وهذه القضية موضع اهتمامى •

ـ خسارة • لكن ليس هذا مكانا للكلام فى هذه الامور سوف أتحدث معك مرة أخرى • فلدينا الكثير لنقوله • سوف أخرج هذا المساء للنزهة مع صديقى • علينا أن نزيل الملل من وقت لآخر • أليس كذلك ؟ نحن هنا أصدقاء • لنتمتع • أما العمل ففيما بعد •

قال الكردى وهو يخرج من كآبته : انتبه سيدى الضابط •

قال نور الدين : بالطبع • أتساءل فيما قلته • الم تقل كل شىء • لقد سمعت قصة غريبة يبدو انك تريد أن تورط نفسك فى حكاية قتل أرنبة • أليس كذلك ؟

قال الكردى : أنا لم أخدعك • ولا أنكر شيئا • ماذا تنتظر لتقبض على ؟

قال يحيى : أنا لا أعرف شيئا عن هذه القصة يا عزيزى الكردى • أهنئك •

رد نور الدين • لن أقبض عليك • لأننى أعرف أنك لست القاتل • لماذا تود أن نقبض عليك ؟ أدهش من شاب مثلك • مثقف • ويتكلم بلغةأجنبية • ويتصرف بهذه الطريقة • لا أستطيع أن أفهم دافعك • هل يمكن أن تفسر سبب ذلك • جوهر أفندى أعتقد انك كنت موجودا أثناء هذا المشهد ؟

ران صمت • تركزت كل الأنظار على جوهر • وخاصة سمير الذى تطلع اليه بتركيز • وهو يشعر انه سيسمع شيئا هاما •

لم يتكلم جوهر . دامت لحظة لم يشعر فيها سوى بكرة المخدرات فى فمه ، كادت أن تنتهى . ابتلع بقاياها وهو يحاول ان يتلذذ بآخر نقطة من مذاقها . وتتلون الاشياء من حوله بألوان جميلة . وهو لا يستطيع ان يحدد اية تفاصيل امامه . تتحول الضحكات والاصوات الى همس بالغ السرية . وكأنها تنهدات امرأة فى لحظة الذروة . تركزت عيناه على نور الدين . بوغت بهذا الاحساس الفريد الذى يشعره المرء امام جلاده . اكتشف ان هذا الجلاد ذا المظهر العنيف مرتبك وقلق ويشعر بالخطر حوله يا لها من نظرة ألم . أى عذاب معنوى يتمثل فى وجهه الصارم . نبهته غريزته ان لا شىء يخشاه من هذا الرجل . بل ان هذا الرجل فى أمس الحاجة الى مساعدته والى الشفقة عليه .

قال يحيى : سيدى الضابط . انتظر . لنسمع رأيك .

علق جوهر : حسنا . أعتقد اننى يمكن ان أفسر سلوك صديقى الشاب . الكردى رجل نبيل الروح . يكره الظلم ويهتم بمحاربته . ويريد اصلاح العالم . ولكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك . وأعتقد أن هذه الجريمة قد أثارته . يود أن يحمل نفسه المسئولية وأن يكون شهيدها . أنا سعيد يا حضرة الضابط لأنك لم تأخذ تصريحاته مأخذ الجد . ويجب أن تغفر له هذا السلوك فقد تصرف بنخوة الشرف .

صاح الكردى : سيدى . هذا فوق الاحتمال . دعنى أشرح لك . أعرف اننى لست القاتل . ولكن سواء كان أنا أم غيرى . فماذا يهم ؟ المهم بالنسبة لك يا حضرة الضابط أن تقبض على أحد . أليس كذلك ؟ حسنا . أقدم نفسى . ويجب أن تقر هذا .

قال نور الدين : عبثا . عبثا . ليس هذا هو المهم . أريد ان اقبض على القاتل ولا أحد غيره .

قال يحيى : لماذا . لماذا تقبض فقط على القاتل ؟ انت تخيب ظنى . تترك نفسه فريسة لاعتبارات واهية .

كرر نور الدين : لماذا ؟ لماذا أقبض على انسان برىء ؟

قال جوهر : من الصعب الحياد بين المذنب والبرىء .

قال نور الدين : ولكننى لا اختار . ولكن اتخذ موقفا بعد اجراءات عديدة . لن اقبض على رجل الا عندما أقتنع بما اقترفه . كلكم مثقفون ويبدو عليكم انه ليس لديكم فكرة عن القانون .

قال يحيى : ليس القانون ما يهمنا . ولكن الانسان . ما يهمنى أن أعرف . لماذا يقضى رجل مثلك يضيع وقته فى مثل هذه الأشياء . بدلا من أن يتمتع بحياته القصيرة . أجد أن هذا الانشغال مثير للشفقة .

قال نور الدين : أنا لا أدافع سوى عن المجتمع ضد الجريمة أى نوع من الناس أنتم . تعيشون بعيدا عن الواقع .

قال جوهر : الواقع الذى تتكلم عنه واقع مزعوم . حلم اخترعه البشر .

قال نور الدين : ليس هناك واقعان .

هتف جوهر : أجل هناك الواقع المبنى على الغش . وفيه تحس انك مثل سمكة معلقة فى سنارة .

– وما هو الآخر ؟

– الآخر واقع متفائل يعكس بساطة الحياة ، لأن الحياة سهلة . سيدى الضابط . ماذا يلزم الانسان كى يعيش ؟ قليل من الخبز يكفى .

يحيى : وأيضا قليل من الحشيش .

ـ يكن . وقليل من الحشيش .

هتف نور الدين . ولكن هذا ضد التقدم .

قال جوهر : يجب أن نختـار . التقدم أم السـلام . لقـد اخترنا السلام .

قال يحيى : اذن فلنترك التقدم يا سـعادة البك . أنت تخرج . ونتمنى لك وقتا سعيدا .

فتح نور الدين فمه ليتكلم . ولكن لم تخرج من حنجرتـه المحشرجة أية كلمة . انه مشدوه بشخصية جوهر . يتكلم هذا الرجل عن السلام كأنه شيء سهل يمكن اختياره . السلام ! يجهل نور الدين كل دخائل جوهر . ولكن هـذا الرجل ليس ما يبدو منه فقط . فهو ليس مفكرا فاشـلا أحاق به الفقر . يشع من وجهه الملىء بالحيوية . ولغتـه الجذابة ونبل سلوكه ذكاء حاد . كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يهوى فى أسفل درجات السلم الاجتماعى ؟ هل اكتشف فجأة "السـلام فى هذا العدم المتناهى .

حسب تقارير الشرطة . فان نور الدين يعرف أن جوهر كان يشغل وظيفة فى ماخور الست أمينة . ولم يعلق لهـذا أية أهمية مؤمنا أن الأمر يتعلق بخادم عجوز احسنت اليه بأن منحته عدة وظائف . لم يتخيل هذا . يراه الآن أمامه . لقد غير فكرته فى هذا الموضوع . وتساءل عما اذا كان هو القاتل . سأل جوهر وهو يحدق فيه باستغراب :

ـ ما هو السلام ؟

رد جوهر : هو الشيء الذى نبحث عنه .

ـ يا الهى . من أدراك اننى أبحث . أنا أبحث عن قاتل .

قال يحيى : انت تثير دهشتى يا سـعادة البك . لماذا لم تأخذ باعتراف الكردى . أتمنى أن أعرف مبرراتك .

قال نور الدين : المبررات بالغة التفاهة . لاننى عقدت لقاء مع هذا الشاب . ولا يمكن أن يكون الكردى أفندى قاتلا . فهو يثرثر كثيرا . واقع دائما تحت سطوة افكاره . وينقصه التملق رجل مثالى . أما الرجـل الذى ارتكب الجريمـة فله صفات أخرى تختلف . كتوم . ملىء بالغموض .

هتف يحيى : يا الهى . انت تتكلم عن علم النفس . لم أكن اعتقد هذا فيك . سيدى الضابط . انت لا تكف عن اثـارة دهشتى .

ـ اعترف انها أول مهمة أتولاها من هذا النوع . غيـاب الدافع الملموس . مما يضطرنى أن أقول انها جريمة بلا دافع .

قال يحيى : الجريمة بلا دافع تتطلب فكرا راقيا . معذرة كنت أتصورك ذا روح شرسة دنيئة .

قال جوهر : انت على خطأ يا عزيزى يحيى حين تتصور أن حضرة الضابط ذو روح شرسة . فقد حلل الدافـع جيدا . لكن لى رأيا .

سأل نور الدين : ماذا ؟

ـ هل تقع الجريمة بلا دافع تحت طائلة القانون ؟ أليس لها نفس مدلول الزلزال مثلا .

.. الزلزال ؟!

قال نور الدين : الزلزال لا سبب له ، انه قدر مشئوم .

رد جوهر : لكن الانسان أكثر شؤما لأقرانه ، أصبح أشد من الزلزال ، على كل حال ، هناك الكثير من الدوافع ، الا تصدق سيدى الضابط ، لقد أظهر الانسان من شروره أكثر ما تمتلك الطبيعة ؟

قال نور الدين مداعبا : لا أستطيع ان أقبض على الزلزال.

قال يحيى : والقنبلة ، هل يمكن سعادتك أن تقبض على القنبلة ؟

قال نور الدين ساخرا : ولا هذه المجنونة ، يا يحيى أفندى لا استطيع أن اقبض على القنبلة .

قال يحيى : اذن ، فانهم يدفعون لك حتى لا تفعل شيئا ، ما يهمنى ، هو انك تقبض على قاتل مسكين ، وانت غير قادر على القبض على قنبلة .

ابتعد سمير عن دائرة الحوار ، ولم يقف أثناء هذا موقفه البارد الملىء بالاشمئزاز ، يبدو نافرا من كل هذا الجمع ، فهم جميعا غرباء بالنسبة له ، لم يقابل مثلهم أبدا ، أحس ان هؤلاء الناس يتكلمون عن غباءات ، وانهم يتعمدون استفزاز نور الدين ويتسلون به ، نظر سمير الى الكردى ، دون أن يعرف لماذا ، فهم أن هذا يعرف ، يعامل نور الدين بكراهية ، هل لأن ضابط الشرطة أفضل منه ؟ أدار سمير رأسه ، وقد أحس بالغضب يتملكه .

قام ، سأله نور الدين .

ـ الى اين ؟

ـ معذرة يا سعادة البك ! على أن أعود للبيت ، فأبى لا يسمح لى بالسهر حتى وقت متأخر .

قال نور الدين : تحياتى للأسرة .

قال سمير بلهجة لطيفة لكنها لاذعة :

ـ لن يفوتنى هذا .

أدار ظهره وعبر الشرفة وهو يرفع رأسه عاليا ، قال نور الدين :

ـ أرجو أن تعذروا صديقى ، فهو شخص خجول .

قال يحيى : انه رائع ، رائع حقا ، لقد حان الوقت ايضا كى أذهب ، آسف أن يفوتنى حديث مفيد كهذا ، الحقيقة أننى أكاد أن أموت نوما .

قال جوهر وهو يقوم : سعيد ان أتعرف عليك يا حضرة الضابط ، الى لقاء آخر .

سأل نور الدين : هل يمكن ان اصحبك لحظة ؟

رد جوهر : بالطبع ، فأنا فى خدمتك .

اختفى يحيى ، وظل الكردى وحده وهو لا يعير رحيل الآخرين اهتماما .

كتم يحيى صرخة وهو يقف ، فقد تملكه شك رهيب ، وايقظه من فتور ، أحس فجأة أن جسده يحترق بكامله ، ولكنه ليس باردا ، فالبرد لا يمكن ان يصل الى المنطقة التى تقبع فيها عذاباته ، انتظر لحظة ، ثم غمس يده فى جيبه واخرج قطعة

من النقود أخذ يقلبها بين اصابعه . يتفحصها طويلا متعجبا على ديمومة الأشـياء . لكن هذا الأمر لم يبد له كافيا . فالاحاسيس المشئومة التى انتابته قد منعته من التنفس . عليه أن يتأكد ان القطعة غير مزيفـة . كيف يتأكد فى الظلام . عليه أن يقترب من النور .

هناك فانوس فى أول الشارع . اتجه ناحية الضوء . وقـد انتابته الشكوك . فلتكن النقود مزيفة . وليتم الليل . لكنـه يتمنى ان ينام . فى غرفة فندق . بعيدا عن البرد وتعب المشى بلا هدف . انه يعتمد على هذه القطعة التى لا يملك غيرها .

يغلبه النوم . حلم بالنوم فى مكـــان مريح . يشعر بلـــذة الابدية . لا يزال المصباح على مسافة امتار . لا يمكن له ان يتماسك طويلا ، توقف لينظر الى قطعة النقود . فتح يده المرتجفة وامسكها بارتفاع عينيه واطلق صرخة مفاجئة . فقد سقطت قطعة النقود فوق الارض . ولم يشعر بها تنزلق من يده المرتجفة . ارتمى يحيى أرضـا وهو يتحسس بيـده . لم ير شـيئا . ولم يتحسس شـيئا . أحس بالدوار وبدأت راســه تتوه . لايزال المصباح بعيدا . الضوء الذى يشعر يسقط فى البؤرة التى يبحث فيها . احس بالغضب يتملكه . لعن نفسه لأنه اخرج النقود من جيبه . ثم أخذ يلعن الحكومة لانها صكت النقود فئة القرشـــين صغيرة . الا يمكن للحكومة أن تصك قطعـــة اكبر . « حكومة الداعرين » . فبماذا كانت تفكر وهى تصنع هذه القطع فى التوفير . هذا شىء مثير للخجل والعبث .

تخيل يحيى وسط غضبه أنه يحول المصباح الى مكان النقود وأنه قادر على كل شىء من أجل العثور على نقوده . فكر فى الثقاب وقفز فرحا . لقد انتهت كل معاناته أثر هذه الحكاية . فعلبـــة

الثقاب موجودة فى جيب بنطاله . أخرجها واشعل عودا . انحنى واخذ يدور بالثقاب حول نفسه . لم يعثر على شىء . فالنقود لاتزال ضائعة . اشعل عودا آخر وسار بضع خطوات حتى كادت ألله أن تلمس الارض . فجأة احس بقلبه يطير من الفرح . فقد رأى النقود أمامه تلمع كأنها قطعة من الماس . التقطها ودسها فى جيبه بسرعة . ثم ظـل سـاكنا لا يقوى على الحراك . أحس فجـــأة بالثقاب الذى نساه يحرق أصبعيه . صرخ : « حكومة الداعرين » .

سمع صوت خطوات قريبة . ثم توقف شخص خلفه . كتم يحيى أنفاسه . واستدار ووجد نفسه أمام شرطى . ياله من ظهور شىء . لا يتحرك من التعب والبرد والجوع . وأمامه الان الممثـل الرسمى لكل هذه الاشياء . ابتسم بغباء . قال الشرطى :

– اذن . فانت تسب الحكومة .

تمتم يحيى . انا لم أسب أحدا يا حضرة .

– سمعتك تقول « حكومة الداعرين » . لست اصما . هيا . قل .

قال يحيى : أبدا يا حضرة . لقد احرق الثقاب أصبعى .

قال الشرطى : سنرى الثقاب فيما بعد . اما الآن . فقـل لى . هل حكومتنا حكومة داعرة . نعم ام لا ؟ .

– أبدا يا حضرة ، بشرفى . لا أقصد حكومتنا .

– أية حكومة تقصد ؟

قال يحيى : اقصد حكومة أجنبية .

قال الشرطى شاردا : حكومة أجنبية . أنت كاذب : بل تعنى حكومتنا . وانا متأكد من ذلك .

ـ بشرفى . هناك سوء تفاهم . ولكن الامر يخص حكومة اجنبية . ويمكن ان اقول لك اى بلد .

سكت الشرطى . بدا كانه يفكر . وانه يرى الامور تسير سيئة .

ـ قل لى اسم البلد بسرعة .

لم يفكر يحيى فى اختيـار البلد . فالعـالم واسع . والبلاد تتلاطم فى وجهه . وعليه ان يختار . خرج من بين شفتيه وقال :

ـ سوريا .

كرر الشرطى : سوريا . انها بعيدة . هل انت واثق ممـا تقول ؟

ـ بالطبع . واقسم لك بشرفى .

قال الشرطى : حسنا . ولكنى لن اتركك . ماذا تفعل هنا وانت تشعل الثقاب ؟ هل تعرف اننى كنت ارقبك منذ فترة ؟

قال يحيى : ساشرح لك . سقطت منى قطعـة نقود وبحثت عنها فاشعلت . كما ترى فالأمر سهل .

ـ قطعة نقود . ماذا تقصد ؟

بدا الأمر معقدا . ارتعد يحيى من البرد . ماذا يدور من حوله كل حياته مطاردات . والان . وفى أول الليل . يجد نفسه امام متاعب جديدة . انه يكره الشرطة وخاصة حراس الليل . ذوى الوجوه القبيحة ورغم ذلك ففى هذه اللحظة تمنى ان يـكون بعيدا عن هذا الشرطى الضيق الافق الغبى . كفاه ما راى . ولديه ما يكفيه من الجنون . ليس امامه سوى النيل . عليه أن ينام بعيدا

عن البرد . وان يتخلص من هذا التعب الذى يجره وراءه . اجل . ان ينام .

تكلم بصوت خفيض . وقد اكتسب كلامه ادبا .

ـ صدقنى يا حضرة . لقد اخبرتك بالحقيقة . وها هى قطعة النقود .

وأخرجها يحيى من جيبه وأراها للشرطى .

ـ لقد وجدتها عندما وصلت .

نظر الشرطى الى النقود وتثاءب . لا يود أن يذهب به الى قسم الشرطة . ثم ان الشخص يبدو له أقل أهمية . قال :

ـ حسنا . يمكنك أن تذهب . وكفاك أن تتصرف كالمشبوهين فانا اراقبك .

قال يحيى : شـكرا يا حضرة . أنت رجـل طيب . ولماح . وستصبح وزيرا يوما .

تنهد يحيى بعمق . ثم أسرع . وصـل أسفل المصـباح . فتوقف وفتح يديه وتفحص قطعة النقود تبدو عادية . قطعـة أصيلة . لا يجرؤ ان يرفضها أحد . استكمل طريقه وهو يشعر ان الشرطى يتبعه فى الظلام .

توقف أمام أول فندق عليه لوحة « فندق الشمس » دخل . ينام الموظف فوق اريكة قذرة . رفع رأسـه ونظر الى يحيى كأنه يعامله كلص .

ـ ماذا تريد ؟

رد يحيى : غرفة .

يخيفه · لا يريد أن يقابل جارته · هذه المرأة المخيفة · ولكن فجأة سمع صوت أشبه بصوت طفل يشده من تردده :

ـ أيها الناس الطيبون ساعدونى ·

تقدم جوهر حتى عتبة الباب دخل غرفة جيرانه · باحثا عن مصدر الصوت · رأى فى ركن من الغرفة القعيد ملقى على الأرض · كأنه تمثال يثير الذعر · غرق فى دموعه · يحملق فى طبق ملىء بالفول وبعض اللقيمات أمامه : عشاءه · عندما اقترب جوهر · رفع رأسه وقد اكتسى وجهه بالارتياح · سأله جوهر :

ـ ماذا أستطيع بالنسبة لك :

رد القعيد : أنا جوعان · ذهبت المرأة وتركتنى وحدى · الا يمكن أن تساعدنى فى تناول الطعام !

رد جوهر : طبعا ·

انحنى ليضع باقة الجرائد أرضا · وترك نور الدين يقف على الباب · صرخ فى القعيد حين رآه :

ـ الشرطة · ماذا تفعل الشرطة هنا ؟

قال جوهر : انه صديق · لاتقلق · فهو لايريد بأحد شرا ·

ـ لا أحب الشرطة · فليذهب

نسى القعيد جوعه تحت وطأة الخوف ولم يفكر سوى فى هذه الكارثة المفاجئة المتمثلة فى حضور الضابط · تلوى على عجيزته مستندا على أسماله · واطلق زمجرة كحيوان سقط فى فخ ويريد أن يهرب من القبض عليه · فشلت المحاولات اليائسة التى بذلها نور الدين لتهدئته · واستكان أخيرا · وتخلص من

الخوف شيئا فشيئا · ظل ساكنا فاغر الفم · ينتظر طعامه · بدا أشبه بضفدع بهذا الأنف الكبير والشفتين الغليظتين والوجنتين المرتجفتين · واللحية ·

انحنى جوهر قريبا منه · وبرقة وعذوبة أبوية بدأ فى اطعامه · تصرف مع القعيد كأنه طفل صغير · سأله :

ـ لماذا ذهبت · هل اختلفتما ؟

قال القعيد : أجل · ابنة الكلب غيورة · لاتكف عن اختلاق الحكايات ·

قال جوهر : اذا كانت غيورة فهى تحبك · احك لى ماذا حدث ؟

ـ حسنا · فى هذا المساء · عندما جاءت تأخذنى من المدينة · وجدتنى أتحدث مع جامعة أعقاب شابة مما أغضبها · وفى كل مرة ترى امرأة قريبة منى · تصيبها الغيرة · ومع ذلك فأنا وفى · وليس لى حول اذا أعجبت النساء بى · يا الهى · لا أعرف ماذا يجذبهن فى ؟!

ظل نور الدين مستندا على طرف الباب · أثارت كلمات القعيد انتباهه · هل هذا حدث فعلا ؟ لايمكن أن يصدق هذا الكلام · خاصة فيما يتعلق برجل له هذه الصفات · أحس أن القعيد يبالغ بطريقة سافرة وهو يتكلم عن الجاذبية التى يسببها للنساء وما يثيره هو غياب كل الحركات فيه مما أكسب القعيد صوتا جهورا وقويا · وكأنه صندوق يتكلم · ود نور الدين أن ينفجر ضاحكا · لكنه أحس أن وظيفته تمنعه · فمهما حدث عليه أن يكون جادا · لقد جاء هنا كى يحل لغزا ، ويمكنه أخيرا أن يفهم ·

أكل الرجـــل بشراهة . ومن وقت لآخـــر يلقى نظرة على نور الدين . لم يصدق حتى الآن ان ضابط الشرطة فى داره لزيارة حميمية . فاحساسه أنه سيقبض عليه قد يجعله يتقيأ . ولذا يتوسل الى جوهر أن يسرع . والا يتركه . قال جوهر :

ـ ولا يهمك . سوف نعود بالتأكيد .

قال القعيد : لا .. لا أريدها . لتذهب فى داهية . فكفانى ما رأيته منها . ثم انها اكبر منى ســـنا . سوف اجعلها تتحسر واتزوج مرة أخرى من فتاة بكر .

ابتسم بوقاحة وهو ينظر الى جوهر ويكمل :

ـ ما رأيك ؟

تذكر جوهر المرأة العملاقة . وهنـأه لأنه ستكون له جارة حلوة قريبا . وقال :

ـ أعتقد انك على حق . فمن الأفضـــل ان تتزوج شـــابة صغيرة . فهى ستجعلك سعيدا .

ـ اليس كذلك . فتاة بكر صغيرة . آمل ان تشرفنى فى حفل زفافى . سوف أقيم وليمة عشاء .

قال جوهر : لن تفوتنى . هل تود أن تشرب ؟

ـ اجل . من فضلك . القلة هناك .

وضعت القلة بجوار الحائط خلف جوهر الذى امسكهـــا وقربها من فم القعيد وجعله يشرب . قال القعيد بعد ان شرب :

ـ شكرا . أنا ممتن لهذا الكرم .

رد جوهر : هذا شرف لى انا .

ـ يمكنك ان تعتمد على معرفتى . سأكون ســـعيدا وأنا ارد لك الجميل .

قال جوهر : فى خدمتك . فجار مثلك منحة من السماء .

لم يكن تبادل عبارات المجاملة مقنعا لنور الدين الذى أحس انهما يسخران منـــه . ود ان يذهب . ويفلت من هذا الجحيم . ولكن شيئا ما اوقفه رغما عنـــه . انهما يريدان ان يفسرا له كيف ان هذا القعيد . بقايا الانســـان . يمكنـــه ان يثير غيرة امرأة . بالطبع لا . اما جوهر فقد استكمل حديثه مع القعيد وكأنما يتعلق الأمر بنقاش بالغ الرقى . أحس نـــور الدين أنه أمام زوجـــين يتبادلان الغزل . انتابته الرغبة ان يحطم كل شىء امامه . تراجع ببطء فوجد نفسه أمام الســـلم المظلم . ولكن الوقت متأخر كى يهـــرب من هذا الفخ الذى دبـــره القـــدر . عبر الســـلم ودفع باب غرفته .

ـ تفضل يابك .

تردد نور الدين أمام الباب . ثم تقدم فى الظلام كأنه قد قرر ان يدخل هوة سحيقة . توقف لاهثـــا . لقد اصطدم بشىء خشبى . استدار وهو يشعر ان مسكينا سوف يطعنه فى قلبه . أحس أن سمير يختفى حاملا سكينـــا ويود أن يقتله مثلما أبلغـــه يوما . وخلال لحظة بلغ فيها اعياؤه حده . سمع جوهر يتحرك فى الظلام . ثم أشعل شمعة أضاءت الغرفة . قال جوهر :

ـ أتريد أن تجلس . معذرة الا أتشرف بهذا . فهذا مسكن فقير . تصرف كأنك فى بيتك .

جلس نور الدين على المقعد ولم يرد . ماذا يعنى هذا الحوار . هل يتصوره غبيا ؟ يتصرف كأنه فى بيته ! لقد بلغت الســـخرية

مداها . كاد نور الدين ان يعتقد ان أرواحا خبيثة تسخر منه . انتظر ان يرى قطعة أثاث . أو اى شىء مكسور . لكن لا شىء فى هذا المسكن الغريب . هذا الخواء الغريب أشبه بسراب . بدا له هذا الخواء مشبوها . وهو يجول بعينيه بنظرة قلقة مليئة بالدهشة .

جلس جوهر فوق باقة الجرائد . وأسند ظهره للحائط . لايزال يرتدى طربوشه ويمسك عصاه فى يده . الجو بارد ورطب فى الغرفة . زرر نور الدين ياقته . وهز رأسه وقالّ بعد صمت :

ـ كل هذا يبرر السبب يا جوهر افندى .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ افكر فى هذا الشحاذ . الذى يتصور أن كل النساء يجرين خلفه .

ـ لاتنس سيدى الضابط ان هذا الشحاذ ـ بسبب دخله ـ يعد منجم ذهب . ولهذا تهتم به النساء .

ـ ومع هذا فهو مخلوق بشع .

قال جوهر : لا شىء بشع . خاصة بالنسبة لامرأة . فهذا الرجل يمارس الحب جيدا وأفضل من آخرين . وأؤكد هذا من خلال ما سمعت . صدقنى فقد كانت تأوهات زوجته تؤكد ذلك . وأعتقد ان هذا يكفى لاحداث النشوة .

ـ أية نشوة .

قال جوهر : الا تعرف أن رجلا كهذا يسبب نشوة ؟

ـ تقصد وحشا كهذا .

ـ وحش افضل منا سيدى الضابط . لانه يعرف السلام . هل تعتقد ان لحكومة سيطرة على رجل قعيد . ماذا تملك له .

قال نور الدين : تقبض عليه .

ـ على قعيد . لا . لا يمكن لأية حكومة ـ مهما كانت اخلاقياتها ـ أن تفعل هذا .

ـ انت رجل غريب . هل تقرأ كل هذه الصحف ؟

ـ رد جوهر : ليحفظنى الله . اننى استعملهم كحاشية أنام عليها .

لم يفهم نور الدين ماذا تعنى الصحف المفروشة فوق الأرض . فى مسكن ملىء بالفقر . ربما أكثر المساكن فقرا . ينام فوق حاشية . كيف يمكنه أن ينام فوق كومة صحف ؟

ـ الا تقرؤها . أتنام فوق هذه الكومة ؟

ـ أنام هكذا منذ سنوات . هل يدهش هذا سعادتك ؟

ـ كيف وقعت فى هذه المأساة ؟ فمن حديثك . يبدو انك رجل مرموق . رفيع الثقافة . وانك تشغل منصبا حساسا فى المجتمع . ومع هذا تعيش كصعلوك . هناك سر أريد أن أفهمه .

ـ لا يوجد سر . أعيش كصعلوك لاننى ارغب ذلك .

ـ يا الهى . انت غريب . ولا أفهم ظروفك .

ـ الحقيقة سيدى الضابط التى تدهشك ببساطة هى الحياة . الحياة الحقيقية . الطفولة البسيطة . لايوجد غموض . هناك فقط اقذار .

ـ من تقصد بالأقذار ؟

ـ اذا لم تكن تعرف الأقذار فلا أمـل فيـك . انه الشيء الوحيد الذى لا نعلمه للآخرين . سيدى الضابط .

اخفض نور الدين رأسه . ووضع يديه على ركبتيه . بدا كأنه يفكر فى مشكلة عويصة . ثم قال :

الأمر أكثر تعقيدا من هذا . فلا يوجـد سـوى طيبين وأقذار .

قال جوهر : لا . ارفض هذا المفهوم . لا تقل ان الأمر أكثر تعقيدا مما تتصور . كيف لاتفهم ان هذه الأوضاع لايستفيد منها سوى الأقذار ؟

صمت نور الدين . من جديد أحس بالملل يتسرب اليه . هذه الغرفة الخاوية التى تثقل على مشاعره تبدو معزولة عن بقية العالم . تخيل نفسه نائما فوق كومة من أوراق الجرائد . سعيدا هانئا وقد تخلص من كل متاعبه . عن ماذا يبحث عن شيء أكثر راحة للبـال من هذا . حقـا . لايمكن أن يحدث شيء فى هذه الجدران . فى هذا العدم . جوهر بلا شـك على حق . يعيش كصعلوك . وهو عين العقل . حياة بدائية المظهر . بلا متاعب . بلا خوف أو حيـاء . لقد كان فخورا بهذه الآثام التى اقترفهـا طيلة سنوات . فليغسل نفسه مما ارتكب فليس لديه ما يخشاه فى احتقاره وأنانيته المفرطة .

لكن ليس من السهل أن يقع تحت طائلة الاغراء . قام من مقعده . وسار فى الغرفة ثم استدار ووقف أمام جوهر . وللحظة أعجب بهدوء وجه مضيفه الذى يشع عن انعكاس ضياء الشمعة .

هذا الرجل ارتكب ـ بلا شـك ـ جريمة . ومع هذا فان ملامحه تحتفظ بصفائها . بعيدا عن الخوف والمعاناة . غريب عن العالم الذى يحيطه . انطلقت تنهيدة من صدر نور الدين . أحس انه لم ينضج بعد كى يصل الى هذه السكينة . التى يحسها فى حياته كصعلوك . انه يقع تحت سيطرة تمليها عليه وظيفته . وواجبـه يتطلب منه أن ينهى مهمته . لايمكن أن ينسى انه ضـابط شرطة عليه احترام القانون . وانه هنا من أجل قتل العاهرة الصغيرة . قال :

ـ فى الحقيقة . جئت لأسألك بضعة أسئلة .

قال جوهر : وانا أسمعك . يمكنك أن تسأل كما تشاء .

أكمل نور الدين وهو يجلس على المقعد : تتعلق بجريمـة القتل فى الماخور .

قال جوهر : أعرف . كنت أنتظر زيارتك . وسوف أرد عليك . سـوف أعد لك قهوة معذرة فقـد نسيت ان أقدم لك مشروبا .

قال نور الدين : لا أريد شيئا . لاتزعج نفسك من أجلى .

اشعل جوهر الوابور أثنـاء ذلك وبدأ يعد القهوة . وبينما يشرب من القلة . تأمـل نور الدين فى صمت . انه جـاد فى أن يعرف . ولكن ضابط الشرطة لم يسـأل بعد . يبـدو كأنه ضائع فى حلم بعيد . ولهذا سأل جوهر :

ـ هل تشك فى أحد ؟

قال نور الدين زائغ العينين : بصراحة أنا أشك فيك .

قال جوهر : حســـنا • اعتنك • فانت على حق • لأننى القاتل •

احس نور الدين بكارثة تسقط على أم راسه من جراء هذا الاعتراف • هز راسه بينما تتطاوح يده أمام عينيه • كأنه ينكر ويرفض • صاح :

ـ يا للسخرية • هذا عبث طفولى • يا جوهـر افنــدى ! صديقك الشاب الكردى قد حذا حذوك • ماذا لكنى • هل تود أيضا اصلاح العالم ؟

قال جوهر : رائع ان تشبهنى بهذا الشاب • الكردى يفكر مثلك • ويعتقد أن الأمر أكثر تعقيدا من هذا •

جهزت القهوة • سكب جوهر حوايا البراد فى فنجانين • ثم مد أحدهما الى نور الدين •

قال : تحت أمرك • ماذا تود أن تفعل ؟

ـ ليست أمامى فكرة الآن • لايمكن ان اقبض عليك بسبب اعتراف بسيط • تلزمنى قرائن • سوف اتخذ قرارى غدا • يجب ان أسأل شخصا • وسيتوقف كل شىء على هذا الاستجواب •

ثم فجاة • ســمعا أغنية قادمة من الغرفة المجاورة • يغنى القعيد أغنية مرحة مليئة بالجنون • أرخى نور الدين أذنيه :

بسرعة ياعربجى ، خذنى معاك •

ودينى بيت البنت الحلوة •

ـ انه يغنى •

قال جوهر : ولماذا لايغنى • فلديه كل أسباب السعادة •

ـ بالتاكيد • كنت احب ان افهم كل هذا •

رفع نــور الدين الفنجان الى شفتيه وارتشف من القهــوة المريرة • ربما أكثر مرارة من حياته كلها •

كادت الشمس أن تصل الى عنان السماء عندما توقف يحيى مترددا فى الميدان • يعرف أنه ســيكون بعد قليل فى قســم الشرطة • ومع ذلك فهو ليس خائفـــا • فهو لايخشى شــيئا فى تردده • لقد استولت عليه رغبة عارمة أن يطيل نزهته وســط الجموع • عليه أن يبدو طبيعيا رغم انه مسطول • يحس بالهدوء • وبالصــفاء الروحى • تملؤه فــكرة مواجهــة السلطـات حتى فى أضيق الحدود •

انتظر يحيى أن يأخذ هذا الموقف المقــارن • يشـــك ان ضابط الشرطة نور الدين يحمل له نيات سيئة • لكن ماذا يعرف بالضبط ؟ هل يعامله كقاتل • ام يشتبه فى انه يعرف القاتل ؟ على كل فهو يأمل ان يعترف له • انه يعرف الطريقة التى سيلجأ اليها الضابط • سيصبح القهر وسيلة حياة فى مجتمع متحضر • لايمكن لأحد ان يفعل شيئا لسرطان المعدة • ولا ضـــد الرعب الذى يمارســه البشر على الآخرين • نظر يحيى الى قسوة رجال الشرطة بنفس منظوره الى الأمراض المستعصية والى كوارث الطبيعة •

يقع قســم الشرطة فى الجهة المقابلة من الميدان • مبنى من الحجر الأبيض • دور واحد • ذو نوافذ صغيرة مدعومة بحديد • وبدلا من أن يعبر يحيى الشــارع ســار فوق الرصيف الأيسر • الساعة الحادية عشر صباحا والميدان مزدحـــم بالعديد من البشر الذين يمارسـون مهنا عديدة يحب يحيى كثيرا هذا المنظر • من السهل أن يعى انه ليس هناك شىء عاجل فرغم ضــجيج الترام وأصوات

العربات ، وصـــياح الباعة الجائلين ، أحس يحيى بأن هذا عالم تقوم فيه الايماءات والكلمات بدور هام ، فالمستقبل بعيد عن هذه الجموع التى تتحرك نحو الابدية ، يبدو مزدحما بفرحـة عارمـه لايمكن لأى اضطراب أن يغيرها .

فكر يحيى فى المعاناة التى تنتظره ، انهـا ليست أول مرة يتم استجوابه فيها ، وليست وحشية الشرطة بخافية على أحد ، حتى فيما يتعلق بتلك المخالفات الصغيرة المتعلقة بتعاطى المخدرات هذه المرة يختلف الامر ، فهو يتعلق بجريمة قتل ، السؤال هو أن يعرف هل سيضربه رجال الشرطة بقوة كالعادة ، هل يعاملون من يتعاطى الحشيش مثل المشبوه فى جريمة قتل كى يرغموه على الكلام ؟ يعرف انه لن ينطق أبدا باسم جوهر ، فهذا ليس من سمات الشجاعة أو الولاء لصداقته ، فما حدث يبـــدو له أمرا عابرا بالمقـارنة للجرائم العديدة التى تقترف فى العـالم ، لا ، الآن ، لا يتعلق الامر بجوهر ، ولكن عليه أن يدين لنور الدين دور الشرطة ، فنور الدين شخصية عبثية ، وعلى يحيى أن يكشف له حساسية موقفه وعند هذا الحد سوف يكون سعيدا وسيضحك ساخرا .

دخل يحيى القسم ثم عرج على غرفة كبيرة بيضاء الجدران ، ليس بها سوى مكتب يجلس خلفه جاويش يقرأ جريدة بطريقـــة تثير الضحك ، اقترب منه يحيى وأخرج طلب استدعائه وانتظر . كف الجاويش عن القراءة ورفع رأسه :

ـ اذن فهو أنت ؟

تطلع الى يحيى كانمـا يلقى عليه العديد من التهم ، يعـرف يحيى هذه النظرة ، فدمامته لا تعجب رجال الشرطة ، يحسون فيها

بروح قاتل اثيم ، ابتسم ومد للجاويش بالورقة فاخذها وألقى عليها نظرة ثم قال :

ـ انتظر مكانك ولا تتحرك .

قال يحيى : لن أهرب .

داس الجاويش على زر وهو يرقب يحيى بعين حـذرة ، على التو ظهر شرطى أشبه بالثور وحياه التحية التقليدية .

ـ تحت أمرك ياجاويش .

ـ خذ هذا الرجل الى حضرة الضابط .

حياه الشرطى من جديد ، ثم أشار ليحيى أن يتبعه .

ـ تعـال .

تبع يحيى الشرطى فى ممر ضيق ، أحس بارادته تخور وهو يتأمل دليله ، لقد وقع بين يدى جلاد الموت ، توقف الشرطى امام باب وطرق ، رد صوت من الداخـل ، فتح الشرطى الباب ودفع يحيى أمامه .

ـ حضرة الضابط ! قال الجاويش أن آتى بهذا الرجل اليك .

قال نور الدين ، حسنا يمكنك أن تذهب .

كان الضابط جالسا خلف مكتبـه ، وقد فتح ياقته ، وبدا مكفهرا غير حليق اللحية ، وكأنه لم ينم طيلة الليل ، تشع عيناه بالحرارة ، وهما تتطلعان الى يحيى كرجل يعرف سر الحكاية :

ـ تعال ، أنا سعيد لرؤياك .

قال يحيى : سلام عليك يا حضرة الضابط .

رد نور الدين : لقد تاخرت · ولهذا السبب وحده تستحق الحبس ثمانية أيام ·

ـ آسف يا حضرة الضابط · فليس لدى منبه ·

ـ دعك من السخافات · فلست مستعدا للمزاح · الأمر جاد هذه المرة · ولن تخرج حيا من هنا ·

ودون ان يستأذن امسك المقعد · وجلس وهو يقول :

ـ لقد كتبت وصيتى ·

سكت نور الدين · حاول ان يتمالك غضبه · فمن اولى كلمات يحيى وهو يبدو ساخرا من هذا الاستجواب · فهؤلاء الناس لا ياخذون الأمر بجدية · ويشعر نور الدين أنه فى احسن حالاته مع هؤلاء الحفاة مهما كانت الجرائم شديدة · ومع هذا فانه يثير خوفهم · لكن مع هؤلاء المثقفين الذين يسخرون من السلطة ·· فانه يتظاهر بانه حساس · بمعنى انه يؤمن بوجود الحكومة · والخطب التى يلقيها الوزراء · وان هناك ضميرا أعمى فى دساتير العالم المتحضر · وسلوك يحيى وأقرانه يضايقه دائما · يبدو انهم أنه لاتوجد حكومة · فهم ليسوا ضد الحكومة ·ولكنهم يتجاهلونها·

ـ لن أتحمل طويلا سخرياتك الغبية · أنت هنا لترد على استجواب يتعلق بجريمة قتل ·

ابتسم يحيى بغباء ·

ـ أنا فى خدمة سعادتك ·

يود أن ينتفض من مقعده يعرف ان كل هذا سوف ينتهى فجاة لأنه لن يقول شيئا · وعبر الستار الحديدى للنافذة المغلقة

الزجاج · رأى حركة الميدان وسمع ضجيج العربات الحياة تسير بالخارج · قال الضابط :

ـ حسنا · لنبدأ من الأول · ولكن أحذرك · عليك بالجدية · اريد اجابة محددة · أعرف انك تعلم اشياء كثيرة ·

قال يحيى : أنا · حقا ياسيدى الضابط · أنت تشرفنى بهذا ·

ـ قل لى · هل كنت فى بيت الست امينة يوم الجريمة ؟

بدا يحيى يفكر :

ـ كى أقول الحقيقة لحضرتك · فقد كنت نائما ·

ـ عندما قتلت أرنبة · أين كنت ؟

ـ قلت اننى كنت نائما ·

تمالك نور الدين اعصابه · ظل صامتا لحظة · وقد تجهم وجهه · لم يشك أن يحيى يتصنع الغباء ·

ـ أنا واثق انك كنت هناك فى هذا اليوم · من قابلت ؟

ـ كنت نائما ياحضرة الضابط ·

ـ الم يات أحد أثناء نومك ؟

ـ كيف تريدنى أن اعرف · طالما كنت نائما ·

ـ يا الهى · هل كنت نائما طيلة الوقت يا ابن الكلب ·

قال يحيى : معذرة يا حضرة الضابط · لم أكن اعرف ان النوم عملية غير قانونية ·

ـ حسنا · سوف أوقظك ·

احس نور الدين بالتشتت • فهذا الغباء قد تجاوز حدوده • كان هذا الملعون نائمـــا • لعله تعاطى حشيشا قبل أن يأتى • يعرف أنه قادر أن يتخلص من هذا الموقف أو ان يســـير فيـه حتى النهاية •

ـ سأمهلك خمس دقائق لتفكر • وبعد ذلك ســـاجبرك على الكلام •

رد يحيى أنه كان نائما • وعندما لم يطرح الضـــابط اسئلة سكت • بدات الدقائق الخمس فبدأ يفكر فى أشياء تافهة •

نظر نور الدين الى ساعتـــه • ثم جلس فى مقعده وانتظر • لقد استغرق هذا التحقيق وقتـــا طويلا • ولن يصبح أهلا لثقة السلطات العليـــا • يعرف أن يحيى لن يتكلم • حتى لو عذبوه • وسيحتفظ بسره • هذا الموقف يؤذى شخصه • انه بادئ القلق • يعلم نور الدين أن يحيى يعرف القاتل • لماذا يسكت ؟ فالقاتـــل لايمكنه أن يدفع له كى يسكت • والجريمـــة ليس لها دافع • وليست مسألة شرف • لقد تحرى نور الدين ماضى يحيى ليعرف أن هذا الأخير لم يكن مشبوها يوما •

سأله :

ـ ألست خائفا من الضرب ؟

رد يحيى : أبدا •

ـ مستحيل •

ـ ليس الضرب سوى حدث فى حياة رجل مثلى ياسيدى • أمر عادى •

ـ انت رجل بلا كرامة •

ضحك يحيى وقال •

ـ انت تذكرنى بامى • كانت تقول لى دائما أن أبى رجل شريف • اما انا فعار على الأسرة •

ـ أليس لديك أى احساس • الا تحس بشئ •

ـ نعم يا حضرة • الآن اشعر بدهشة عظيمة •

ـ أى نوع من الدهشة ؟

ـ أدهش من رجل مثلك يقضى وقته فى ممارســـة ألعاب رائعة كهذه •

ـ فيم توذنى ان أقضى وقتى ؟

رد يحيى : فى التنزه •

أحس نور الدين بالغيظ • فقال •

ـ ليس لى الآن حول • ذنبك على جنبك •

فتح الباب فدخل منه شرطيان • نظرا الى يحيى وهما يقتربان منه ببطء •

ـ ستتكلم الآن •

لم يرد يحيى • اشار نور الدين الى الشرطيين • مر احدهما وراء يحيى بينما أمسكه الاول من الامام وبدأ فى ضربه •

نظر يحيى الى ما يحدث كأنما الأمر لايعنيه • تساءل عما اذا كان الضابط يلعب دورا رائعا بالنسبة لهم • فهذا شئ رائع •

فهؤلاء الناس يتسلون بطريقتهم . وهو لا يكن لهم اى ازدراء او كراهية ، أحس بالهدوء . واغلق عينيه .

؛ لفت الضربة الاولى رأسه . احس بألم غريب اعتدل بعد الضربة الثانية . ثم توالت الضربات . ازداد الألم الى حد لايستطيع احتماله . وجد نفسه غارقا فى جحيم أسود ملىء بنور البرق . وهو يسمع نور الدين يسأله :

ـ هل ستتكلم يا ابن الكلب ؟

وفجأة . وسط ارتطام رأسه . سمع ضجة من بعيد . ذكرته بشىء وما حاول ان يعرفه . أجل . انها مدافع أذان الظهر . فتح عينيه وصاح .

ـ انه الأذان يا سادة .

رفع الضابط ذراعه كى يضربه . توقف مندهشا . سأله :

ـ ما . . ؟

قال يحيى بصوت ضعيف : أعتقد ان ساعة الأكل حانت . فانا جوعان .

اخفى نور الدين رأســـــه بين يديه . وأراد ان يصرخ . صـــاح :

ـ القوه فى الخارج لا أريد أن أراه .

أمسك الشرطيان يحيى ودفعاه خارجا . بقى نور الدين وحيدا . وقد شعر بالتوهان . ثم تذكر ان الظهر قد حان وعليه ان يذهب لتناول الغذاء .

وعندما خرج نور الدين من قسم الشرطة . كان قد ادرك ان جوهر هو القاتل الحقيقى . ولكن ماذا يهمه الآن . لقد قرر ان يقدم استقالته ويعيش حياته كصعلوك . صعلوك امر سهل . ولكنه سيد متكابر . أين يجد الكبرياء . ؟ لايوجد أمامه سوى ملل لاينتهى . وحاجة كبيرة للسلام . للسلام وحده .

This book belongs to Ahmed Salem

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٢٣٣

ISBN ٩٧٧ _ ٠١ _ ١٨١٠ _ ٩